مذكرات في الدبلوماسية الثقافية

مشاهد وشخصيات سودانية

أمجد محمد سعيد



مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مذكرات في الدبلوماسية الثقافية

المؤلف : أمجد محمد سعيد

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٤٨٦٥

الطبعة الأولى ٢٠١٣



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إطلالة

مرحبا أيها السودان

مرحبا أيها السودانيون

قضيت خمس سنوات تقريبا في ربوعكم الجميلة ، من أوائل ١٩٩٢ وحتى أواخر ١٩٩٦ ، مستشارا صحفيا للسفارة العراقية ، ومديرا للمركز الثقافي العراقي، كانت مليئة وثرية بالانجاز الثقافي والإعلامي ، تعرفت خلالها على العشرات من المثقفين والمبدعين والفنانين والشعراء وكتاب القصة والروائيين والإعلاميين والدبلوماسيين ، وعلى المئات من أبناء الشعب السوداني العظيم .

وكنت قبل ذلك اعرف الكثيرين ، وبعد عودتي تواصل تعرفي واهتمامي بالشأن السوداني ، وتواصلت مع الساحة السودانية ، ونشرت في صحف الخرطوم، وعملت مراسلا ثقافيا لصحيفة أخبار اليوم حيث أشرفت على صفحتين أسبوعيا بعنوان (الثقافة العربية في أسبوع) تحت رعاية الأخ الأستاذ احمد البلال الطيب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير ، والأخ الأستاذ محمد مبروك مستشار التحرير ، والأخ الأستاذ عاصم البلال الطيب مدير التحرير .

وكنت انشر في صفحتي اغلب الأسابيع زاوية بعنوان (تذكارات سودانية) وأصبح ما تجمع منها مادة لهذا الكتاب ، ففي قسمه الأول تناولت أكثر من أربعة وثلاثين شخصية من زوايا مختلفة هي طبيعة علاقتي بها .

أما القسم الثاني فيتناول مشاهد من الثقافة السودانية ، بعض معالمها وفولكلورها ، وما مر بي من شؤونها .

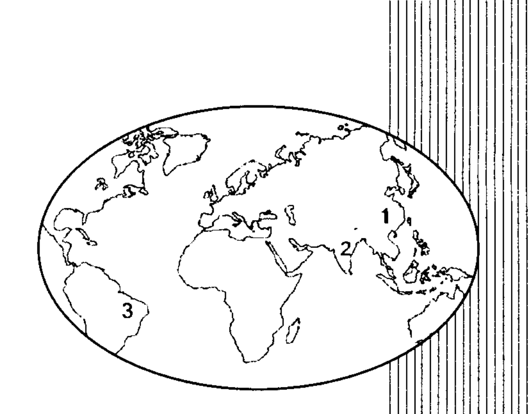
والقسمان الأول والثاني هما مادة الجزء الأول ، حيث ما يزال لدي الكثير لأقوله أن شاء الله في أجزاء أخرى عن أصدقاء أحباء ، ومثقفين كبار ، وشخصيات لامعة لم ترد أسماؤهم في هذا الجزء ، لأسباب منها ما يتعلق بطبيعة الظرف الذي مررت به خلال تناول المشهد العام للشخصية ، ومنها ما يتعلق بالمناسبة العفوية التي استدعت الشخصية ، وأنني عاكف على ملاحقة الذاكرة ، واستنهاض قدراتها لاستذكار التكوين العام لتلك الشخصيات ، والشكل الذي سيؤطر تناولها وتقديمها إلى القارئ الكريم .

لكنني للحقيقة والتاريخ ، لم أضع اي بُعد لتفضيل احد عن الآخرين ، كلهم أحبة وأصدقاء ، شكلوا لوحة إقامتي وحياتي في السودان العزيز ، وهذا ما شهد به السودانيون أنفسهم .

أخيرا لابد من إزجاء الشكر والتقدير للأخ محمد الجيلي سعدابي مدير عام شركة الشرق لدعمه طبع الكتاب ، وحرصه على اطلاع القارئ السوداني والعربي عليه .

والله من وراء القصد

المؤلف



القسم الأول

أمشاجٌ على أمشاجِ أحمد عبد العال

١

١

بين يديَّ كتابُكَ الجميل ، (أمشاج) ، أَثَرُكَ النثري الشعري الفني الراقي ، الذي طالما حلمتَ بهِ ، طيلة سنواتٍ وسنوات ، وانتظرتَهُ ليكون بين أيدي الناس والقراء ، وليحتل مكانه اللائق في المكتبة العربية .

أردتَ له أن يكون كتابا جامعا ، مانعا ، ابعد واشمل من الأنواع الكتابية المحددة ، ووضعته خارج التصنيفات الاعتيادية ، والأنواع الأدبية المسطرة ، فهو نثر، وشعر ، وحكايات ، ونقد ، وتصوف ، ورسوم ، وتخطيطات ، وذكريات، ومواقف .

وهو أمشاج ، حيث تستعير الاسم من لغة القرآن الكريم ، الذي يقول بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ صدق الله العظيم ، وعلى قول اللغويين (مشج ، خلط ، وشيء مشيج ، والجمع أمشاج ، ونطفة أمشاج مختلطة بماء المرأة ودمها ، والأمشاج التي تجتمع في السرة) ، إذن هو اندغام أول بين المكونات البكر، وهو بدايات توحد الأشياء ، وتخلق وتشكيل ، وولادة وظهور، ومراحل أولى من تفاعلات العناصر واندماجها. ليبزغ شكل جديد .

وأمشاج ، النص ، رحلة روحية فكرية وثقافية فائقة الحيرة ، والدهشة ، والجمال ، تتسرب منه ينابيع القصص والحكايات التي تتشظى وتنساب من حيث

لا يدري احد ، إلى حيث لا يدري احد .

تلقي بالأسئلة الكبرى والصغرى وتمضي تاركا القارئ يصل بنفسه إلى ضفاف السلامة ، ومواطئ الأمان .

تطوف أمشاجكَ الرقيقة الهامسة بالقارئ في مراتع الكتابة والتأليف ، وحدائق اللغة ، وبساتين الحروف .

تصطاد حكاياتك العجيبة ، وقصصك الغريبة ، من الشوارع الخلفية المنزوية ، والحارات الأمينة المطمئنة ، والشواطئ المفتوحة على المياه والأمواج، والبيوت المختبئة في خبايا بعضها البعض ، والفيافي والقفار ، والجداول والأشجار .

توحد بين البشر والطير والغزلان والأسماك ، والحجارة ، والقلوب ، والنجوم ، والأفلاك ، والتخوم .

تعبُر الكلام الصائت إلى حوارات الصمت والسكوت ، والى سحر بيان النظرة والالتفاتة ، وحديث الندى والتراب والحجارة .

تستجلب الصور من عوالم الصور التي تفترضها ، والتي تتماهى مع خيالك الغزير ، ومع غيث حروفك المدرارة ، وجملك الساحرة المسحورة .

وتتألق حين تفرق بين الخيال ، وبين حضرة الخيال ، إذ يكون الخيال افتراضا وتصورا ، تستقيه الأنفس من عوالمها الخاصة ، ومن دواخلها الذاتية ، وهي ليست واقعا حقيقيا ، إنما توهم جميل .

أما حضرة الخيال ، فهي واقع حقيقي موجود في هذا الكون العجيب ، متكامل المشهد ، ضاج بالجمال ، وغارق في الدهشة والكمال والجلال والإبداع، ومن هذه الحضرة ، حضرة الخيال ، يستقي الفنانون والشعراء والرسامون

والموسيقيون والمفكرون، انجازاتهم العظيمة الخالدة، هكذا فهمت منك، والعذر أن شطح بي التعبير، أو خانني توصيف المعنى.

في أمشاجك، يا سيدي الفنان الشيخ، تمازج حي بين لغة الكلام، ولغة التشكيل، وحدة موصولة لما بين الأنواع، وخصوصية في كل نوع.

وأمشاجك سَفر عذب في حدائق الألوان، وقراءة لمواجد الإنسان، واغتراف من ينابيع الإحسان.

وأمشاجك وقائع واقعة، وليست حكايات موضوعة، فلها مكامن ثابتة، وفيها أحداث جارية من أول الماضي إلى آخر الزمان.

ويحدثوننا عن الواقعية السحرية، فأين الواقعية السحرية من أمشاجك، وأين نسمع أنين الحروف، إذا لم نسمعها من بين دفتي كتابك، وأنت الذي دخلت في محاريب شيوخك السالفين، أولئك الذين أعطوا اللغة مرابع الخلود، ونواصي الزمان.

وفي أمشاجك التنقل بين اليومي، والأزلي، بين القريب من هموم البشر الآنية، وبين الهيام في مجرات التطلع الأبدي، إذ تعبر خفيفا، من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دنيا إلى دنيا.

وإذ تكتفي من الكلام، تنتقل إلى الرسم والتشكيل، كأنما تريد أن تصور ما سبق أن قلت، وان تشكل ما نثرت، وان توحد - كما هدفت دائما - إلى بلوغ اللغة الأخرى التي تستوعب كل اللغات، وهل الرسم والنحت إلا لغة، وهل الموسيقى إلا لغة، وهل الرقص الذي مارسته الشعوب من فجر التاريخ، وفي كل مكان من الأرض، إلا لغة، وهل كل الفنون الأخرى إلا لغات تضاف إلى لغة الكلام عبر الحروف، وها أنت تحاول أن تجمع اللغات في هيأة شفافة تصل

القلوب والعقول ، وتختصر المسافات ، وتعبر الحواجز إلى بدهيات جديدة ، وعلاقات وليدة .

كتابك هو الانزياح الرائع ، في اللغة واللون ، هو الانتقال من العادي إلى المدهش ، ومن اليومي العادي إلى الدائم الخالد . هو الجديد الذي لن يبلى ، إذ أعطيت القارئ مفاتيح خاصة له ، وبه ، واليه .

ويصل كتابك إلى الناس ، فيجدون فيه المتعة والفائدة ، فيبقى لك أثرا جميلا، لن تنال منه السنون .

وأسألك يا سيدي الفنان الشيخ ، أترى ، كيف جاء الابتلاء في الآية الكريمة ، مباشرة بعد كلمة أمشاج ، لابد انك لاحظتها ووقفت عندها ، فهو الخلق الامتحان ، يا سيدي الشيخ ، وهو التجربة التي لن يصل إلى نهاياتها الطيبات ، إلا أولئك النفر الذين عرفوا كيف يعمرون الأرض ، ويبنون للآخرة ، ولا أزكيك على الله يا احمد ، يا أبا الخاتم ، ولكنني والله ، وبإذنه ، ما أراك إلا قد عبرت البرزخ ، إلى نعيم سرمدي ، كنتَ اشد ما تكون صدقا ورغبة في اللحاق به والوصول إليه (*).

(*)فصل من رواية (أمشاج على أمشاج) ، المعدة للطبع ، تماهيا مع أمشاج أحمد عبد العال ، وسبرا لأغوار حياته وفنه.

كينونة إلى الفنان التشكيلي

السوداني أحمد عبد العال

٢

-١-

قَمَرٌ أخضرُ

في حرف القافْ.

قَمَرٌ أزرقُ

في حرفِ النونْ.

-٢-

قوسٌ أخضرُ

في قوسٍ أزرقَ

في آنيةِ كريستالْ .

قوسُ قزحٍ

يهربُ كل صباحٍ

من بينِ يَدَيْ

أحمد عبد العالْ .

يلمعُ فوق البحرِ بأم درمان.

يضيء شجيراتِ الخرطومِ

يطير إلى كسلا

ويمُرُ بباريسَ

تكون اللوحة حينئذٍ

قد ولدت من رحم السودانْ .

-٣-

في الطينِ الحَيِّ أراكَ،

وفي سيقانِ الأشجار الأفريقية

في قطع الحجر المنحوتِ

وفي أقمشةِ الخامْ .

أعرفُ،

أنَّ أصابعَكَ السمراءَ

ستمنحُ هذي الفوضى

روحاً ثانيةً،

موسيقى،

وكلامْ .

في حوشِ أبي الخاتم في (بُريّ).

قرب النيل الأزرقْ .

زرع أبو الخاتمِ

نخلاتٍ

وشجيرة تينٍ

وشجيرة زيتونٍ

من بغدادْ.

- يا أحمدُ... لا تقلقْ!

فالأشجارُ ستزهرُ يوماً ما

وستورقْ.

الموصل ١٩٩٨.

القاص والروائي أحمد قبّاني .. نزيل بغداد

٢

لعل قلة من الناس في السودان من لا تعرف القاص والروائي والإذاعي الراحل احمد قباني ، فهو علم من أعلام أم درمان الجميلة ، وشخصيته نموذج للإنسان السوداني الحميم على كافة المستويات .

تعرفت مبكرا على الراحل احمد قباني في دار الإذاعة والتلفزيون العراقي ، معد برامج وكاتبا ومذيعا وفاحص نصوص وغيرها من وظائف وتخصصات العمل الإذاعي التلفزيوني ، وكان محل ثقة واعتماد ومحبة أيضا ، يكلف بالأمور الهامة ، والشؤون الكبيرة ، إذ كان ينجز العمل بدقة وحرفية وهدوء ، وفي الوقت ذاته يلتزم بمواعيد الانجاز والانتهاء من التكاليف ، إذ ليس هناك مجال للتأخير والإبطاء .

وهو إذ يمارس عمله الإذاعي فانه لا ينسى دائرة إبداعه في مجال كتابة القصة القصيرة والرواية والمتابعة الأدبية والثقافية ، وكل من العملين كان يقتنص الوقت من العمل الآخر دون أن يلغيه ، أو يؤثر عليه تأثيرا خطيرا .

وهو في كل ذلك إنسان متواضع جم الخلق ، صديق العشرات بل المئات ، متبسم وضاحك دوما ، لا يعرف إلا معاني الود والمحبة والألفة .

وكان لا يخلط الأوقات ، فلكل وقت مهامه وانشغالاته ، منذ الصباح حتى يهل المساء ، فتراه يعبر جسر السنك من الكرخ باتجاه الرصافة ، ماشيا أكثر الأحيان ، قاصدًا مبنى اتحاد الأدباء والكتاب ليلتقي الأصحاب والخلان ، ليقضي ساعة أو ساعتين ليعود بعدها إلى بيته .

وكان نظامه هذا معروفا لا يشذ عنه ، إلا قليلا ، لموعد صديق ، أو زيارة قريب قادم من السودان ، أو لقاء زميل . وكان على ما بدا لي لا يحب السفر كثيرا ، فلم اسمع مرة انه غادر بغداد إلى جهة ما .

حين غادرت إلى السودان للالتحاق بعملي ، جلس معي طويلا مرات عديدة في مبنى الإذاعة والتلفزيون ، أو في نادي اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين ، يحدثني عن أصحابه وذكرياته وأيامه الأولى وشبابه في الخرطوم وأم درمان ، وأعطاني الكثير من العناوين وأرقام الهواتف ، وحين قلت له ، ماذا أرسل إليك من هناك قال : لا تنس التنباك . وقد أرسلت إليه ذلك التنباك مرة أو مرتين ثم أخذتنا انشغالات الحياة في مساربها حتى سمعت برحيله المفاجئ ، وأنا لا أكاد اصدق ، وبقي في بغداد هناك رمزا من رموز العلاقة الأبدية بين شعبين صادقين في محبة احدهما للآخر .

وحين كنت امشي مرة في احد دروب أم درمان ، غير الرئيسية ، لزيارة صديق ، فاجأتْني كتابة بالطباشير على حائط قديم ، عبارة توشك أن تمحى ، تقول : انتخبوا احمد قباني ! فأقشعر جسدي وطفرت دموعي ، وتداعت كل الأيام الماضية، وبعد هذا المشهد الغريب كتبت قصيدتي في احمد التي لم تولد إلا قريبا من بيته ، وكانت رسالتي فيها لأهالي المدينة أن احمد قد رحل ، وكان عنوان القصيدة (احمد قباني أم درمان تَسلِّمُ عليك) ، أقول فيها :

إلى الصديق الراحل القاص أحمد قباني

حين تعبرُ

في ليلةٍ من ليالي الشتاء الجميلِ

إلى أمّ درمانَ

قفْ برهةً

عند ساحلها

ثمَ نادِ على أهلها

قل لهم:

إن أحمدَ ماتَ ..

وعَرِّجْ على ساحة السوقِ،

حيث ترى بيت طينٍ

ببابٍ خشبْ .

وترى رجلاً أسمرَ اللونِ

يلتفُ بالريحِ

جلبابه أبيضٌ كالحليبِ

يُغني وحيداً

ويعزفُ شبابّةً من قصبْ .

حينما تعبر الجسرَ

يا سيدي

في الطريق إلى أم درمانَ

سوفَ ترى

إن نظرتَ إلى النهرِ

نيلينِ يقترنان بقلبي

ترى شبحاً عائماً

قرب (أبروفَ)

أو ناسياً نفسَهُ

عند أحراش (توتي)

فدعهُ ينامُ

ومن فوقه شجر النيمِ

خَلِّ المراكب تمخُرُ من جنبهِ

في هدوءٍ

توزعُ أحلامهُ

فوق كل الضفافْ.

حين تعبر يا كبدي

مرهقاً من عناء الظهيرةِ

قل للصبياتِ :

دعنَ اسمَهُ شاخِصاً

فوق حيطان هذي الدروبِ..

تهجَّ قليلاً

قليلاً

بقايا الحروفِ

التي أوشكت أن تضيعَ

مع المطر الموسميِّ

وريح الفصول الترابيةِ

(انتخبوا احمدا..)

كم مضى

والتلاميذُ يمشونَ جنب اسمهِ

كل عامٍ

ويمضونَ

مثل النوارس خلف نشيد الحياةِ

وأحمد يضحك في سرّهِ

(انتخبوا أحمدا..)

وهو في صخبٍ

يترك العمر يجري

كما شاء..،

يوصلني

ويودعني..

عند باب الإذاعةِ

في الفجر منفردا

ضاحكا غردا

...

سأراكَ غدا..

الموصل ١٩٩٧

- أوصيكَ

لا تَنْسَ

هذي عناوين قلبي

وهواتف صحبي

وسلم على النيلِ

واجلب قليلاً من التبغِ..)

لم أنْسَ ...

لكنني

ما الذي سأقول لهمْ

ونداؤك لمّا يزلْ

صادحاً في الميادينِ

ما بين دجلة والنيلِ

صوتك لما يزلْ

خيمة من غيوم المحبةِ

وا أحمدا..

هل أراكَ غدا ؟!

زورقاً من جريد النخيلِ

تطوف الشواطئ

إسحاق أحمد فضل الله

٣

قريبًا من الشعر .. بعيدًا عن السياسة

جمعني واسحق احمد فضل الله ، الشعر والأدب والثقافة ، والصحافة والكلمة الصادقة .

لكلينا خصوصيات ثقافية ، وفكرية ، وسياسية ، وحياتية تبعد أو تقترب ، من هذه القضية أو تلك ، لم نناقشها يوما إلا في إطار حب الوطن وسيادة الأمة وتقدمها ، والاعتزاز بالتراث والدين الصحيح ، والتاريخ المجيد ، لم ندخل في تفاصيل غير مجدية ، وكأننا كنا نتواطأ مع بعضنا ، لكي نظل على الساحة التي تناسب محبتنا .

حين أهديته مجموعتي الشعرية (أربعون نهارا والموصل الأفق) ، في ما قبل منتصف أعوام التسعينات في الخرطوم المحروسة ، والتي طبعتها دار جامعة الخرطوم في طبعتها الثانية ، كانَ رده الإبداعي أربع حلقات نقدية حول قصائد المجموعة الشعرية ، في الصفحة الثقافية لصحيفة الإنقاذ الوطني حيث كان يعمل، والتي كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير موسى يعقوب الذي كان أول رئيس تحرير يستقبلني عند مباشرة عملي بالخرطوم ولي معه لقاءات كثيرة ومودة عالية .

كانت كتابة اسحق احمد فضل الله النقدية اقرب ما تكون إلى الشعر ، من النمط الذي يفجر مكامن أخرى في القصيدة الشعرية ذاتها ، وهو النوع الذي يستهويني ، وأمارسه كثيرا ، بعيدا عن التنظيرات التي تكتفي بنفسها ، وتنسى القصيدة ، وإذا كان قد تعامل مع مفردات بعض القصائد بحميمية وخصوصية ،

منحازا معها إلى عوالم وضفاف قصية ، فأنه في الوقت ذاته تعامل مع المجموعة كلها باعتبارها كوكبا مترابطا ، يشد بعضه بعضا ، ويدور دورته في ذهن وعين القارئ ككتلة واحدة .

كانت كتابته من ذلك النوع الذي يفتح في الحروف نوافذ مختلفة ، وآفاقا ملونة ، مدركا بعمق أن ما يقرأ هو عجين المكان والزمان والتجربة والثقافة ، لتكون القصيدة بعد ذلك درة خاصة متفردة .

أحببت بحق ما كتبه عني اسحق ، وأحببته شخصيا ، وكانت لغته الخاصة تثير فيَّ إزاءه شعورا عاليا بالاحترام والصدق والمودة ، وظللت أتمنى كثيرا أن يعمق المجرى النقدي الأدبي الإبداعي في ما يكتبه ، وان يرسخ ذلك الوهج الجميل الذي تصوغه كلماته وحروفه ، وما زلت أرجو أن يتفرغ قليلا للأدب والفن والنقد ، ويقلل من حجم اهتماماته الأخرى ، وان يتناول الإبداع الهائل الذي تزخر به ارض السودان الحبيبة ومنابعهُ القصية .

وكان لثقافته وقراءاته الشاملة والكبيرة في الأدب والفلسفة والتاريخ والدين والسياسة وغيرها ، تأثير واسع على قدرته التحليلية النقدية للعمل الإبداعي الذي يتناوله .

وكنت كثيرا ما أزوره في الجريدة ، الإنقاذ الوطني ، مع من ازور من الأصدقاء في الصحف والمجلات السودانية الأخرى، بحكم كوني شاعرا أولا ، ومديرا للمركز الثقافي العراقي ومستشارا صحفيا في السفارة العراقية ثانيا ، ولكنني كنت احرص على وقته ، فهو دائب الانكباب على الورق الأسمر ، نتجاذب أطراف الحديث من هنا ومن هناك ، وبالكاد اسمع صوته الهامس الحَيِي وهو يعلق على هذه القصة ، أو يشير إلى تلك القصيدة مما يرد إلى الصفحة الثقافية .

أنا ابحث عن كتابات اسحق احمد فضل الله النقدية الإبداعية ، قد أجد هنا أو

هناك ما يرويني ، ولكنني أطالبه بتنفيذ مشروعه الثقافي في مجال الأدب والنقد بعد أن صممه منذ سنوات تصميما حيويا جميلا ، وان يصدر كتاباته الكثيرة في كتب خاصة ذات منهجية هو يعرف كيف ينظمها ، حتى تعم الاستفادة ولا تضيع عبر الصحف اليومية إلى الأرشيف .

حين زرت الخرطوم آخر مرة ، لم تتوفر الفرصة لكي اجلس وإياه جلسة طويلة ، اكرر فيها شكري له لظنه الحسن في ما كتبته ، ولكنني لو زرتها مستقبلا فلي معه جلسة طويلة ، ليس فيها غير الشعر والنقد والأدب .

٤

أمير عبد الله خليل
دبلوماسية النَّبات

آخر مرة التقيت فيها الدبلوماسي الصديق الأخ الدكتور أمير عبد الله خليل قبل اقل من ستة أشهر ، في منزله العامر بأم درمان ، حيث كان يتعافى من جراحة أَلمَّتْ به ، وكان قد اقلني إليه ، وبرفقته ، الصحفي الصديق مصطفى أبو العزائم ، الذي صادف وان سألني عن وجهتي في هذا المساء ، وأنا واقف أدردش معه أمام مبنى جريدته [آخر لحظة] الغراء ، المجاور للفندق الذي أقيم فيه ، مدعوا من المحبةِ الغامرة والكرم الجميل ، لرئيس تحرير صحيفتي [أخبار اليوم] الكاتب الصحفي احمد البلال الطيب ، صديقي القديم وأخي العزيز ـ ورُبَّ أَخٍ لكَ لمْ تَلِدْهُ أُمّكَ ـ .

لم أكن اعرف بجراحة الدكتور أمير ، ولكنني احرص في كل زيارة للخرطوم أن اتصل به ، وأزوره ، ونستذكر بعضا من أيامه في العراق ، وبعضا من أيامي في السودان .

لم يكن بيت أمير غريبا عني ، فلقد كنت أزوره في الماضي ، واستمتع بلقاء الأخ السفير الأسبق ، الأستاذ ميرغني صهر الدكتور أمير ، حتى في أوقات كان هو فيها في بغداد بحكم وظيفته في الأمم المتحدة . والبيت في الحقيقة مفتوح دائما للزوار من الأصدقاء والأحبة والمعارف ، ولهم من الأمكنة ما يتسع للكثيرين .

كانت رائحة الإرث السياسي والثقافي والاجتماعي السوداني تفوح في المكان دائما ، يعزز من قوة نفاذها ، تلك الصور المعلقة في صالة الاستقبال ،

والموجودات المحفوظة للسياسي السوداني الراحل عبد الله خليل ، التي تضفي على الأمكنة تواريخ ، وأحداث ، وأسماء ، بسماحة سودانية لا تخطئها العين .

وكنت أرى في حاضر هذا البيت ، مشهدا متأثرا بماضيه العريق ، وان ظلالا منه تنعكس على اللحظة الآنية ، من خلال حسن إقبال المُضيف على الضّيف والترحيب به، ورُقي الأحاديث المسرودة بحضور ثقافي عالي المستوى ، وسمو العلاقات الإنسانية ، وأريحية البشر سكانا وزائرين .

كنت دائما أحس بأن للماضي حضورا حقيقيا لدى السودانيين ، مثلما أراه واشمه وأنصت إليه في هذا البيت ، كما إلى لغة الصمت والسكون الذي يصادفك بين فترات الاحتفاء بك ، حين تظل لُحيْظات وحدك ، قبل أن يقدم لك الشاي أو القهوة ، أو حين يعتذر منك المضيف للرد على هاتف ، أو الاستجابة إلى طلب عائلي .

وترتبط في ذاكرتي في هذا البيت أيضا ، لحظة التعرف على الفنان الكبير عبد الكريم الكابلي ، حيث كان قد أحيا في سنوات التسعينات ، إحدى أجمل ليالي الموسيقى والغناء والطرب والسمر والثقافة ، بحضور العديد من الأصدقاء العراقيين والسودانيين والعرب ، وهي التي جعلتني أتابع مسيرة هذا الفنان الأصيل ، وأغوص في طبيعة أدائه الجميل ، واكتب عنه مرات عديدة ، وخاصة إثر زياراته إلى القاهرة وتكريمه فيها .

في زيارتي الأسبق ، حين وصل أمير قادما من مزرعته ، كنت قد وصلت أنا أيضا قبل دقائق ، ولم أكد ابدأ بارتشاف فنجان القهوة مع ولده ، حتى اطل علينا بروحه المتدفقة ، وترحابه القديم ، وقامته المديدة ، معتذرا عن تأخره قليلا ، مشيرا إلى بعض شؤون الزراعة والزرع والمزرعة ، التي يعكف على متابعتها ورعايتها بنفسه ، وكنت المح وراء كلماته نبض الحرص على أن يداوم العلاقة مع النَّبات ، جوار الماء والشمس والطين ، في لحظات ربما هي أجمل ألف مرة من

جلسات المكاتب الدبلوماسية الفخمة ، الباردة أحيانا .

كان قد انغمس في دبلوماسيته الجديدة ، دبلوماسية النبات المباشرة ، المكشوفة بين البُنِّي الأرضي ، والأخضر المتدرج الذي لا يعرف البين بين ، دبلوماسية النِّبات وعلاقات الخضرة والندى ، قواعدها مباحة للجميع ، ونتاجها لا يفرق بين الأجناس واللغات والأمم والشعوب ، وطعمها واحد لكل الشفاه ، وخيرها ليس للبشر وحدهم ، إنما لكل من يدب على الأرض دبيبا .

كنت اقرأ على ملامح أمير تلك النشوة التي تولد حين يتبارك طين الأرض مع طين اليدين ، في مزيج الخلق الأول ، بسحر الماء العجيب وسره الإلهي ، ونظرات الشمس الأولى ، حيث يقف الإنسان وهو في كَبَدِهِ الدائم ، في برزخ المعنى الشامل لتعمير الأرض ، وإنماء الحياة ، ودفع الوقت إلى وقت آخر ، أكثر خضرة ، وأعمق حقائق بما يدوم ، وابعد مدى بالرمز والمرموز .

التقيت الدكتور أمير عدة مرات في بغداد ، وكان يحتل مركزا مرموقا في منظمة الفاو التابعة للأمم المتحدة ، وأكثر من ذلك لدى محبيه من أبناء العراق ، في فترة كان الحصار الظالم فيها مضروبا على العراقيين بحجج واهية كاذبة ، بدأت خيوطها تتضح الآن قليلا قليلا ، ويكون معنا دائما القاص والروائي والإذاعي الراحل احمد قباني ، بروحه البهيجة وأدبه الجم وإبداعه المتألق ، وكثير من السودانيين والعرب والعراقيين ، وكان أمير يضيفنا دائما ، هو وحده الذي يضيفنا ، دون أن يقبل التدخل في هذا الأمر لأسباب شخصية وموضوعية ، يعرفها ، ونعرفها نحن أيضا .

الكلام كثير ، والوقت ضيق ، والدنيا صغيرة .

حين ودعني عند الباب الخارجي ، أحسست بتلك الغصة العميقة في قلبه وهو يقول لي : لا تحزن السودان وطنك أيضا .

٥

با بكر محمد الحسن

عمود الخيمة وذراع الشقيق

تأخرت عليك كثيرا يا صديقي با بكر محمد الحسن ، ولأنَّكَ تعرفني معرفة جيدة ، فستقبل اعتذاري .

كنت معي منذ اليوم الأول لتعارفنا وعملنا ، حين كان مركزنا الثقافي بعدُ ، حلما يحبو في خيالنا .

وكنت معي طيلة وجودي في السودان حتى غادرت الخرطوم .

وأنت معي الآن كل يوم ، في ذكرياتي التي لن تجف أبدا .

كنت أنت الساعد الذي لا يضعف أبدا ، واليد التي لا تفتر مطلقا ، للمركز الثقافي العراقي ، والناشط الثقافي والفني الذي لا تنضب أفكاره ، وكنت مليئا بالحركة والقدرة والإخلاص ، وحين اسقطُ تعِبا ، تضحك مني بضحكتك المجلجلة وتقول لي :

لقد شِخْتَ يا زول ، وتمضي كالصقر العنيد .

با بكر محمد الحسن موظف سوداني طيب ، من هذا الشعب الطيب ، الذي لن يعرفه إلا من اعتمر عمامته ، ولبس جلابيته ، وانتعل مركوبه ، وشرب من ماء كوزه ، واكل كِسرته .

يعمل ليل نهار ، حتى في العطل الرسمية ، لا يفكر إلا في القيمة الحقيقية والفعلية ، وهي ماهية وشكل المنجز الذي سنقدمه للجمهور . وما إذا كان

سيلاقي صدى أم لا .

شديد التواضع ، والخلق الكريم ، والكرم الأصيل ، يتعامل مع الصغير والكبير بألفة ومحبة ، ويجيب عن أي سؤال مهما كان مصدره ، وأيّما يكون مضمونه . يطيل الشرح والتفسير حتى يوصل المطلوب إلى الآخر .

كان يمكنه أن يكون في مكان أكثر راحة ، وهدوءا ، ولكنه فضل التعب وبذل الجهد ، والتعاون ، دون انتظار مكسب ، أو التعويل على المغانم ، فقط كان محبا للسودان ، ومحبا للعراق ، والأمة ، ولم يحصل منا إلا على المحبة فقط والشكر الطيب الجزيل .

وأخي با بكر كان ولوعا بكل جديد ، حتى وان لم يستكمل بعد شروط اشتهاره ، وكان يرى في ذلك محاولة في استيلاد الكمال ، والبذل والابتكار من قبل المعني للتفكر في الحلول الواجبة .

وكان أكثر حرصه على كسب الشباب للتفاعل مع المركز ، وعمل على إنشاء عدد من الجمعيات الفرعية المتخصصة لهم وحدهم ، القصة القصيرة ، والشعر ، والموسيقى والغناء ، والرسم والتشكيل ، وما إلى ذلك ، وكان يرى في ذلك تأطيرا لشخصية الشباب .

في كل مرة ازور السودان لابد أن التقي با بكر محمد الحسن ، قد ألتقيه مرة في الهيئة القومية للثقافة والفنون ، ومرة في دائرة الفولكلور الشعبي ، وآخر مرة كان قد تقاعد ، ويقضي أوقاته على ما اعتقد في احد مراكز الشباب في أم درمان حيث يستثمر فراغه فيما يفيد البلد والناس .

و با بكر من جيل الموظفين الذين يقدسون المسؤولية ، ويحترمون شروطها وواجباتها ، الجيل الذي تحمل بناء أقطار الوطن العربي بعد مرحلة

الاستعمار الأجنبي ، الذي ترك بلادنا في أسفل هرم التقدم والمعاصرة ، وإن كان قد أفادنا في بعض ما هو غير ضروري ولا أساسي .

وزامل با بكر بعد انتقالي من الخرطوم صديقي مازن الذي أعقبني في المسؤولية ، وقد تعاوَنا تعاوُناً مثمراً بناءً لخدمة العراق والسودان .

بثينة خضر مكي

٦

سفيرة متألقة للأدب السوداني

منذ سنوات عديدة ، وفي الخرطوم بالتحديد ، تعرفت على القاصة والروائية والباحثة المبدعة ، بثينة خضر مكي ، كنت اعرف انحيازها للأدب والثقافة ، وتعاطيها للشأن الأدبي ، عبر كتابتها القصة القصيرة والرواية ، التي ربما شغلتها أحيانا عن عملها ، كعضو نشيطة في اتحاد المرأة السودانية ، أو انجازها لرسالة أكاديمية طموحة.

في القاهرة ، ومن خلال المهرجانات الثقافية العربية المختلفة ، وخاصة في القصة والرواية ، وحتى في زياراتها الخاصة ، المليئة بالبعد الأدبي والثقافي والإبداعي ، حيث الأمسيات الثقافية ، والندوات القصصية والشعرية والنقدية ، بدأت التقي ببثينة خضر مكي أكثر من السابق ، التي ما تفتأ تقدم صورة مشرقة عن الأدب والثقافة والفنون في السودان ، وتحرص على تأدية دورها في الاستجابة لأية نشاطات ، والاستجابة لأية أسئلة تتعلق بالشأن السوداني ، وربطه بإطاره العربي والإفريقي والعالمي .

آخر تواجد لها في مصر ، كان خلال مشاركتها في الملتقى الدولي الأول للقصة القصيرة ، ممثلة للسودان ، حيث ألقت كلمة الوفود العربية المشاركة في الملتقى ، وعبرت عن حزمة الأماني والأمنيات القومية نيابة عن العرب جميعا ، وطالبت بالاهتمام أكثر بالقصة القصيرة مبدية تثمينها لملتقى القصة القصيرة في القاهرة ، كما شاركت في العديد من الأمسيات والندوات المتخصصة ، المقامة

على هامش الملتقى . إضافة إلى قيامها بالعديد من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية والصحفية.

تعتقد بثينة خضر مكي ، أن للقصة القصيرة في العالم العربي ، مشهد أساسي وموقعًا أصيلًا ، ولا يمكن أن يقل الاهتمام بها ، إنما قد يكون خفت قليلاً ، ربما بسبب المقولة غير المدروسة دراسة علمية التي نادت بأن الرواية أصبحت الآن ديواناً للعرب بعد الشعر، لكن القصة القصيرة لا تزال موجودة ، وهي تنبض في خفوت ، وتعتقد أنها ظلمت كثيراً أو تضررت كثيراً ، لكن ملتقى القصة في القاهرة رد إليها اعتبارها الصحيح.

وحول تقييمها للملتقى تقول: أن هذا الملتقى خط مساراً واضحاً في طريقة الكتابة الإبداعية ، وبصفة خاصة في كتابة القصة القصيرة ، وما رأيته من أوراق وبحوث في المؤتمر ، تعتبر أكثر فاعلية كثيراً مما رأيته سابقاً ، وكل هذا الجهد الكبير من قبل المجلس الأعلى للثقافة ، ومن قبل وزارة الثقافة المصرية ، سيأتي أكله وستكون النتيجة واضحة في مجال ومسار القصة العربية ، حيث تحتاج إلى بعض التنشيط ، وكما قلت فهي لم تختف ولم تمت ، وإنما خفت ضوؤها قليلاً ، وهي في حاجة إلى زيادة النشر ، وتحفيز الكتاب الشباب ، حتى يعود لها بريقها مرة أخرى.

أما عن المشهد القصصي الآن في السودان ، فقالت إنه أقوى كثيراً من مشهد الرواية ، بعكس الدول الأخرى ؟ فهناك الكثير من كتاب وكاتبات القصة القصيرة في السودان ، لكن ما يعوقهم هو الانتشار والنشر ، إنني اعتبرهم إضافة مهمة للأدب العربي.

وحين تتحدث عن نفسها تقول : لي سبع مجموعات قصصية ، منها أطياف الحزن ، النخل والمغنى ، وهي تتناول المتغيرات الاجتماعية التي تحدث في

السودان ، والتي مرت به خلال الفترة الأخيرة ، ومنها متغيرات عقائدية واجتماعية وإنسانية بدرجة كبيرة.

وعن ظاهرة الأدب النسوي ، تشير إلى أن المرأة مثل الرجل في تناول الهم العربي والهم الإنساني بصفة عامة ، وهي تكتب بعمق وإحساس قوي وبحرارة وقوة شديدة ، لذلك لا أميل إلى تصنيف أدب نسائي ، وآخر رجالي ، هذه مقولة خاطئة ، لكن هناك أدب بشكل عام يكتبه رجل أو تكتبه امرأة.

وتتحدث عن تجربتها الحياتية والثقافية في دول الخليج العربي فتقول : عشت في دولة الإمارات أكثر من ١٢ عاماً ، وكنت عضو مؤسسة رابطة الأديبات الإماراتية ، وشاركت في مسابقة عن السرد النثري في دولة الإمارات ، وأنا أعتقد أن الإمارات بالذات تقدمت كثيراً في مجال الكتابة النثرية للسيدات ، وهناك كاتبات الآن ينشرن أعمالهن بجرأة وشجاعة بالغة ، وأعتقد بوجود مستقبل باهر في كتابة المرأة داخل الإمارات وكذلك في الكويت والبحرين.

الشاعر الرائد تاج السر الحسن

٧

إبداع في الشعر ونبل في الحياة

منذ أن بدأنا نقرأ الشعر ، ونتذوقه ، عبْر نتاج الشعراء العرب المحدثين ، كان الشاعر السوداني الكبير تاج السر الحسن ، واحدا من رواد ورموز القصيدة العربية والسودانية الجديدة ، وكنا نتابع ما ينشره مع شعراء جيله ، الذين خاضوا غمار التجربة الحديثة ، وأسسوا لمعالمها التجديدية المتنوعة ، بما كانوا ينشرونه في الصحف المجلات ، واسعة الانتشار حينئذ في القاهرة ، وبيروت خاصة ، وغيرها من العواصم العربية ، ومن خلال الملتقيات والمهرجانات الشعرية والثقافية العربية والأجنبية.

ولم يؤثر على اتساع شهرته ، وانتشار قصائده في العالم العربي ، ما تميز به من تواضع جم ، وزهد بالغ في بناء العلاقات الثقافية ، فقد ظل اسمه رابضا مكينا في تاريخ وحاضر القصيدة العربية المعاصرة ، وسيبقى ماثلا في المستقبل كجزء من تيار الحداثة العربية.

ولعل قصيدته آسيا وإفريقيا ، التي أبدع في أدائها الفنان السوداني الرائع عبد الكريم الكابلي ، جاءت مناسبة هامة ، لإجباره على اقتحام الأوساط الثقافية على مستوى العالم أيضا.

أعرف تاج السر الحسن عن قرب ، وأعرف ما يتمتع به من معرفة وثقافة وقدرات شعرية ونقدية ، فقد كنت طالما تشرفت بالجلوس بين يديه منصتا إلى آرائه ، والاستماع إلى مقاطع من شعره ، إضافة إلى الإرث الذي كنا نعرفه عنه سابقا، وكانت الأمسيات الثقافية الشعرية والنقدية تجمعنا به بين الفينة والفينة ،

حيث يتحفنا بما يستجد لديه ، وكم كنت أحتفي به حينما يزورنا ، نادرا ، في المركز الثقافي العراقي ، وحينها كنت لا أعرف كيف أوفي هذا الشاعر الكبير حقه من الود والتقدير والوفاء.

واعترف الآن أنني وأنا في السودان ، لم استطع الدخول إلى عالمه الوسيع أكثر، فقد كان منشغلا كأستاذ ، بالتدريس في الجامعة ، التي أخذته بعيدا نوعا ما ، عن التأكيد المتواصل على القصيدة ، حيث زاغ قليلا إلى النقد والبحث ، وقدم خدمات جليلة من خلال ذلك للأدب السوداني والعربي .

وقد منحه الاحتفاء الأخير به في معرض الخرطوم الدولي للكتاب ، بعض حقه المشروع من تكريم وعناية ، ولكنه يستحق أكثر من ذلك ، وكم أود أن أراه مشاركا في مهرجانات عربية دولية في القاهرة ، وغيرها من العواصم العربية ، حيث سيسعد الشعراء والنقاد والصحفيون العرب بمقدمه ، والاستماع إلى شعره وتجربته الشعرية والنقدية الكبيرة.

وهل صعب أن يأتي سنويا عشرة شعراء من السودان ، ليحيوا ليالي شعرية ونقدية ، في هذه العاصمة ، أو تلك من عواصم الوطن العربي!.

وخير ما أختتم به هذه الكلمة ، لأستاذي وصديقي المبدع تاج السر الحسن، ما قاله الناقد الأدبي العربي والسوداني الكبير ، مجذوب عيد روس ، في حفل تكريم للشاعر :

من أن تاج السر الحسن ، أثبت الهوية الشعرية السودانية ، مع الاهتمام بالبعد الاجتماعي ، ونشر الوعي بدور الشعر في التحرر والانعتاق ، وأكد عيد روس ، أن د. تاج السر الحسن هو من رواد شعر التفعيلة ، مع أبناء جيله جيلي عبد الرحمن ، محمد الفيتوري ، ومحي الدين فارس ، مضيفا أن تاج السر الحسن ، تفوق في الشعر والنقد ، بما له من إجادة عميقة للغات ، بينها اللغة العربية والروسية والإنجليزية.

الشاعر التيجاني حاج موسى

٨

ريشة الدمع ووتر الحنين

أفكر فيه دائما ، مثلما تفكر بشرفة حبيبتك الغائبة المفتوحة على الاحتمالات كلها ، أو مثلما تظل أول قصيدة لك ، تستدعيك ، وتستدعيها ، بمبرر واحد أحيانا ، وبمبررات ألف ، غالب الأحيان .

ولكن التيجاني حاج موسى ظل حاضرا في ذاكرتي المتعبة طيلة السنوات الماضية ، وتألق حضوره الأنيس في تضاريسها طيلة شهر رمضان المبارك الماضي ، وأنا استذكر بحنين وشوق تراويح ليالي العاصمة المثلثة العميقة الغائرة في أصوات قراء القرآن الكريم ، بالطريقة السودانية الغارقة في الدمع الإيماني ، والابتهالات السماوية .

يأتي التيجاني ويذهب إلى سواحل الذاكرة ، كظل غصن يتمايل بين مطر وأغنية وريح ، مثلما تمرق نجمة من إسارها وسط السماء ، فتراها تشع ثم تغيب في طرف الدنيا البعيد على حوافي فضاءات أم درمان اللانهائية ، أو مثلما تعبرك أغنية وحيدة ، وأنت وحيد ، في ليل وحيد ، بين شوارع بحري الأكثر وحدانية ، وأنت تهم بالرحيل حاملا عصاك وما تيسر من دعاء وخبز وماء ، إلى ما بعد حلفاية الملوك ، تسلم في طريقك على بيت الشريف ، عون الشريف قاسم ، ثم تبعد رويدا رويدا إلى ممالك الجهات الأربع .

في لحظة ما كنت أحس أنني تأخرت في الكتابة عنه ، ولكنني كنت اعرف أيضا من سياق حياتي الثقافية ، أن تقديم موضوع ما ، أو تأخيره ، لا يتعلق

بموقفك الشخصي منه فقط ، بقدر ما يتعلق باستجماعك المشهد الشامل لوجوده لوحده ، ووجودكما معا ، ووجودك لوحدك أنت أيضا ، ورؤيتك البانورامية المفتوحة على الأطر الخارجية ، والتفاصيل الداخلية ، لكل تلك الوشائج منفردة وملتحمة في الوقت ذاته .

ولكن أين ؟ وكيف ؟ ومتى ، أستطيع إذن ، أن أستجمع بانوراما التيجاني حاج موسى ، إنسانا وشاعرا وصديقا ، ذكرى من هنا ، ودمعة من هناك ، وردة من هنا ، وشظية من هناك ، موجة من هنا ، وغيمة من هناك .

ولان التيجاني وَلَدٌ من أولاد الكتاتيب ، وفقير من فقراء الخلاوي ، ومريد من مريدي الكلمة والنغم ، فقد سعى إليَّ جسدا وروحا ، قبل أن أسعى إليه كتابة وحروفا . وصله مني على البعد أنين المحب ، وبريد المودة ، واشتياق المريد ، فجاء يسعى إلي قاهرة المعز مستجيبا لنداء الأرواح ، فإذا به أمامي ، ومعه كل ارثه الصوفي المحمول على أكتاف جده التيجاني الكبير ، وبين شفتيه كل أدعية المساكين بجلابيبهم البيضاء ، وعمائمهم الخضراء في ليالي السودان التي لا تنتهي عند حد .

أجمل ما سمعت عن التيجاني مؤخرا هنا في القاهرة ، وما سمعته كثير وجميل ، ما قاله عنه مدير عام الخطوط الجوية السودانية العبيد فضل المولى في كلمته في الحفل الختامي لمهرجان الفنون السودانية الأول : أن التيجاني حاج موسى في أشعاره وقصائده وأغانيه وكتاباته ، شكل مساحات عميقة وثرة وبالغة الخصوبة من وجدان الشعب السوداني وعواطفه عبر عقود طويلة من الزمن .

يا لها من شهادة عظيمة ، ويا له من تاج شرف مرصع بالوفاء والانجاز ، من يستطيع الحصول عليه ؟ .

في السودان وعبر سنوات خمس ، قضيت مع التيجاني أياما جميلة حقا ، وليالي

أجمل ، والتقيت به لقاءات حميمة كثيرة ، في كل مكان ذهبت إليه في دوائر عالم الثقافة والفنون والصحافة والأدب ، التي عملت فيها في الخرطوم ، منها ما كان مصادفة ومنها ما كان مخططا له ، وكان أجمل ما فيها ، أنني ما رايته مرة إلا وطلبت منه أن يقرأ لي من شعره الجديد أو القديم ، وهو لا يتردد في الاستجابة بابتسامة راضية ودودة ، وكان وما يزال يتمتع بقدرة عجيبة على إنشاد الشعر ، فيكاد أن يذوب في الكلمات ، قبل أن تذوب الكلمات فينا .

كتب التيجاني الشعر العربي الفصيح ، العمودي ، وقصيدة التفعيلة ، وكتب الشعر العامي أو الشعبي ، بكلتا الطريقتين أيضا ، وكتب الأغنية كشكل إبداعي ذي خصوصية وتفرد ، وحقق في كل ذلك حضورا مشهودا له ، على الساحة الأدبية والفنية السودانية ، ولكنه ربما وجد نفسه اقرب إلى الناس من خلال الأغنية التي غناها له اغلب واهم فناني السودان المعروفين المشهورين ، وهو محق في ذلك ، إذ ما أن يبدأ بإلقاء إحدى قصائده ، حتى يكملها جمهور المستمعين بفرح وشوق غامر .

لقد استطاع بشفافيته ، وعذوبة لغته ، وتمثله لتجارب الناس الإنسانية ، أن يوجد له موقعا أثيرا لدي أبناء وطنه ، حين عبر عن أشواقهم وأفراحهم وأحزانهم ، لا فرق بين كبير وصغير ، رجل أو امرأة ، شيوخ وأطفال، على امتداد السودان كله.

وإذا كان التيجاني عرف كيف يبني قصيدته المغناة ، بهندستها وتراكيبها ، وخصوصيتها في التأليف والكتابة ، فانه أيضا استطاع بما توفر له من وقت أن يكتب القصيدة العامية التي تنأى بنفسها عن احتمالات الغناء لتداخل أبياتها وتدفق كلماتها ، وأيضا لخصوصيات في التجربة بحد ذاتها .

وكذلك فقد كتب التيجاني قصائد فصيحة كثيرة تحمل في ثناياها جوانب من تجربته الشعرية والحياتية ، وقدمها للجمهور الذي اكتشف أنها لا تقل جمالا وقوة

وشفافية عن أشعاره الأخرى . ونأمل أن نرى مستقبلا مجموعته الشعرية الكاملة وهي تضم نتاجه الشعري كله .

لم أودع التيجاني بعد انتهاء رحلته إلى القاهرة ، فقد ضاع مني وسط حفاوة أكثر من تجمع ومحفل سوداني هنا في مصر ، كلهم يرغب في باستضافته والاحتفاء به .

ربما سأهاتفه قريبا .

٩ الشاعر السوداني التيجاني حسين دفع السيد
قوة الموقف في عذوبة الكلمة

ما زلت أتذكر ابتسامته الطيبة التي تضوع على الأصحاب محبة وسلاما وحنانا ، وما زالت شفافيته المطلقة تنتشر في الأنحاء ، سودانية ، عربية ، افريقية ، إسلامية ، ويصلنا منها بين حين وآخر أخبار ومشاهد ورؤى ، تعوض عن هاتف مقصود ، ورسالة مخصوصة .

وما زال شعره وقصائده تقرأ في الأمسيات الثقافية ، والندوات الشعرية ، والجلسات الأدبية والسياسية ، عابقة بروحه السودانية العربية الوطنية الوثابة ، التي تطلق نجوم التفاؤل والإصرار على بقاء الحلم مخضرا ، والأمل يانعا ، مبشرا بولادة الامة العربية المتحررة الواحدة من جديد ، بالرغم من كل الإحباطات العنيفة ، والانكسارات الثقيلة ، والإحزان التي لا تنتهي التي يعيشها الإنسان العربي المكسور من المحيط إلى الخليج ،

من القاهرة ، كما من الموصل ، وبغداد ، أتابعه على البعد ، من خلال شبكة الانترنيت ، ومن خلال بعض الأصدقاء القدامى ، والجدد ، أتابع بعض نشاطه الموزع على الشعر والسياسة والاقتصاد والصحافة ، وكنت أود انه لو كان بمثل هذا النشاط أيام كنت في الخرطوم .

وتعجب كيف يجمع الشاعر التيجاني حسين دفع السيد كل هذه الوداعة والطيبة والألفة ، بكل ذلك العنفوان ، وقوة الإرادة والثبات على الموقف ، وكيف تستطيع الكلمة أن تكون في يديه مرة سيفا ناريا بتارا ، ومرة وردة أنيسة فواحة

بالعطر والأريج ، وفي كل الأحوال تكون رسالة سامية إلى الناس والوطن والأمة .

والتيجاني حسين شاعر متميز ، مهموم بالوطن ، ومشغول بالواقع العربي المزري المدمى ، عباراته حارة مكتنزة دافقة بالمعنى ، وصياغاته الفنية سهلة عذبة موجهة للناس في العواصم والأقاليم والمدن والقرى ، واضح دون نثرية ، يصل إلى القلوب دون حجاب ، جم التواضع ، كبير المحبة .

وهو في الوقت ذاته شانه شان اغلب الشعراء السودانيين ، يكتب القصيدة السودانية العامية الشعبية كما نطلق عليها في العراق ، وله العديد من القصائد المغناة بحناجر مطربين سودانيين معروفين ، هذا إضافة إلى كتاباته النقدية والصحفية المختلفة .

ظللت اسأل عنه دهرا ، وابحث في طرقات أم درمان ، وهو يناكدني ، ويزوغ مني متعمدا عامدا ، حتى افتتحت المركز الثقافي العراقي فجاء مهنئا ، وغاب ثانية، وكان عذره في الغياب انه سعيد بنشاطات المركز الثقافي ، وانه يتابعه بفرح ، وهذا يكفي .

كم أنا مغبون في معرفتي بالتيجاني حسين ، وهو مغبون في علاقته بي ، لم التق به إلا لماما وعلى فترات بعيدة ، وفي مصادفات نادرة ، ورغم أنني لم أجالسه في حياتي إلا مرات معدودات ، إلا انه يحتل مساحة كبيرة في قلبي ووجداني إنسانا وشاعرا ومناضلا .

حتى في مرابد بغداد الشعرية كنت ألتقيه سريعا مع شعراء السودان المعروفين ، أو أراه على البعد وهو يلقي قصيدته من على منصة المهرجان ، إذا ما توفرت له الفرصة أن يأتي ، وأنا في خضم مسؤوليات العمل ببعض لجان المهرجان ، مما يفوت علينا جلسات الليالي على شاطئ دجلة ، وبين ظلال نخيلها الجميل .

ورغم أن التيجاني حسين من مواليد عام ١٩٥٣ ، وبدأ كتابة الشعر وهو طالب في الثانوية ، وصدر ديوانه الأول (أغنيات الشمس والحرية والخبز) عام ١٩٧٨ وهو طالب في كلية الاقتصاد بجامعة الخرطوم ، إلا أنني اشعر انه كان مقلا في الكتابة الشعرية خاصة ، برغم أن اسمه كان من في السبعينات والثمانينات من أسماء الجيل السوداني والعربي المتألقة . غير أن نتاجه الشامل في كافة المجالات التي كتب ونشر فيها ، تضعه قامة ثقافية سودانية عربية متنوعة الموهبة والاهتمامات .

الآن هو رئيس تحرير مجلة المصارف السودانية ، والمستشار الإعلامي لاتحاد المصارف السوداني ، وسمعت انه زار القاهرة قبل أشهر ، وأنا أقول له أنا انتظرك في زيارتك القادمة إلى مصر .

١٠ الفنان التشكيلي السوداني حسان علي أحمد
خفقان القلب في عواصف الألوان

تصطخب لوحة الفنان التشكيلي السوداني حسان علي احمد ، عبر ألوانها المتصارعة المشتبكة ، وخطوطها المتلاصقة المتداخلة ، وكتلها المتدافعة ، ومساحاتها المشحونة بالانفعالات ، بتدفق تيارات مسفوحة على عوالم اللوحة ، وما خلف اللوحة ، مما تستره حداثة مقصودة ، مشيرة إلى غموض مرجعياتها الأولى ، وأصولها البدائية ، ناهيك عن غموض طرائقها الممتدة إلى المكان والزمان ، والى ما بينهما ، من الفراغ الفارغ ، أو الفراغ المملوء ، وقد تكون لاغية حتى للملامح التفصيلية للكائنات ، البشرية وغير البشرية ، المرئية وغير المرئية ، بما فيها الإنسان ذاته .

انك لا ترى إلا مخاضات متدافعة ، وأمواج متلاطمة ، تحيلها الألوان المشتعلة حينا ، والغائمة حينا آخر إلى كتل متناقضة ، تكشف دواخل الفنان الذي يجابه بتصدي لوحته ، لتناقض العالم المحيط .

كما انه لا يعطينا فرصة لتحديد أولوياته ، إنما يسقط علينا كتل غيومه دفعة واحدة ، أو انه يلقينا في أتون اللهب الممتد من جراح الذات المكسورة ، إلى انفجارات اللغة التعبيرية ، القافزة من مكمن إلى مكمن ، ومن فضاء إلى فضاء ، حتى انه يرِقُّ في مراحل من المسيرة اللونية ، فيعييه النصب الحتمي ، وتتعبه الدروب اللانهائية ، ليلتجأ إلى ظل ظليل ، أو إلى نبع ماء بارد ، أو ليغفو خلف شجرة عملاقة لا تبين أغصانها ولا فروعها ، ولا يبدو من الهدوء الشامل إذا ذاك ،

إلا الهدوء الشامل نفسه .

انه يسعى خلف اللون الاجتماعي غير الفردي ، أن صح التعبير ، فهو لا يكتفي بإظهار مكنوناته الخاصة ، بل يغادرها إلى ذوات الآخرين الذين يعيشون الحيرة نفسها ، والألم نفسه ، انه يسعى لعولمة الأحزان الخاصة إلى مدى رحب يتسع دوما ، ولا احد ينجو من أشعتها ولا من مخالبها .

ورغم كل هذه الإشكالية المتنوعة ، فانه يقدم لوحة جميلة ، وأقول جميلة ، بمعنى أنها تقع في القلب موقع القبول ، والإتيان الطوعي ، والتضامن مع ما تطرحه من أفكار غامضة ، أو ما تسببه من أحاسيس مختبئة في أعماق النفس البشرية ، حيث تأتلف مع المشاهد ، وتظل ترافقه في خفة وهمس .

وأخيرا ، فلابد من الإشارة هنا ، إلى الحرفية العالية التي يتمتع بها الفنان حسان على احمد ، وقدرته على استيلاد الانسجام الكلي ، والوحدة الشكلية الضرورية للوحة ، عبر ذلك السفر اللوني المتباعد ، وحيث تستدعينا اللوحة لمعانقتها ، والاحتفاء بها .

روضة الحاج

١١

سقط النصيف ولم أرد إسقاطه !

على قاعة دار الكتب والوثائق العراقية في بغداد ، على ما اذكر ، وقريبا من تمثال الشاعر العربي الكبير ، أبي الطيب المتنبي ، المنتصب في حديقة الدار الخارجية المعشبة ، استمعتُ أول مرة إلى الشاعرة السودانية المتألقة روضة الحاج، في احد مهرجانات المربد الأخيرة ، ربما أوائل الألفية الثالثة ، إذا لم تخنّي الذاكرة .

كان منظرها فريدا ، وطلعتها السودانية الواثقة على منصة الإلقاء ، جديدة على المربديين ، فهذه أول مرة يراها الجمهور الثقافي في عاصمة الرشيد ، ويستمع إليها .

وحين بدأتْ بتقديم بلاغها الشعري الصارخ للأمة العربية ، غرق الحاضرون في خجلهم ، وهم يستمعون إلى امرأة عربية تشكو إليهم قيودها المكبلة ، واحتلال المغتصبين الأرض العربية ، وهم لا يستطيعون فعل شيء ، فلقد :

[سقط النصيف ولم أُرد إسقاطه]

كان صوتها مدويا ، في رقة المرأة ، وقوة الكلام ، وحسن الخطاب .

أما القصيدة فقد بدت متماسكة ، مسبوكة في إطار حديث ، مستخدمة القناع التاريخي بجدارة ، وفنية عالية ، وكذلك فيما تواشج من استخدام رموز المرأة العربية ، ذات البعد الحيوي الدائم عبر عصور الأمة المختلفة .

لم التق بروضة قبل ذلك في الخرطوم ، ويبدو أنها تألقت ما بين عودتي إلى العراق نهاية ١٩٩٦ .

فرحت بوجودها في العراق أيّما فرح ، لا سيما وإنها اختطفت الأضواء الثقافية والإعلامية ، بقصيدتها ، و بخصوصية المرأة الشاعرة التي تعرف ما ينبغي أن تقوله في مثل هذا المهرجان العربي الدولي .

وهكذا أصبحت روضة الحاج من الأصوات السودانية والعربية النسوية التي أخذت الأدب والشعر ، مأخذ الجد ـ ولم يكن سلما مخمليا تصعد به إلى أمجاد استعراضية فارغة ، مما نراه اليوم كثيرا على الساحات الثقافية العربية ، وغير العربية ، خاصة من النساء ـ مع اغتراف مستمر من ينابيع الثقافة القديمة والجديدة.

في كل مرة أجيء إلى الخرطوم ، تحتفي بي روضة الحاج ، احتفاء أدبيا متميزا، وقد سجلت معي عبر برنامجها الإذاعي أكثر من ثلاث ساعات ، أحاديث وقصائد وذكريات ، وخاصة تأكيدها على القصيدة الملحمية عن السودان (عزف سوداني بأوتار عراقية) . بل بعثت إلى من يشهد بمعرفتي من أهلها وذويها ، حينما قيل لي في الجوازات بأم درمان ، لابد من شاهد ، ليكتمل إصدار جواز سفري السوداني .

في القاهرة ، وفي مهرجان الشعر العربي الأخير ، أكدت روضة الحاج حضورها الشعري ، وأعطت انطباعا رائعا عن الحركة الشعرية في السودان ، ونالت استحسانا طيبا ، من قبل النقاد والشعراء والإعلاميين ، كما أكدته في أكثر من مكان في الوطن العربي .

وأخيرا هي تعرف جيدا طريقها الشعري ، وتعرف ماذا تلتقط من الحياة العامة والخاصة ، لتكتبه عبر قصيدتها ، وتعرف أيضا أن الطموح الفني والشخصي ، لا يقف عند حد ، وان المواصلة والتجديد سواء بإشعال الحرائق ، أو إضاءة القناديل ، هو الذي يبقي قلب الشاعر خفاقا حتى آخر الكلمات .

١٢ السموأل خلف الله

من بيت لثقافة إلى المركز الثقافي ببغداد حتى أروقة

آخر مرة زرت فيها الخرطوم المحروسة كانت قبل أشهر عديدة ، وكالعادة أضع في برنامجي العفوي زيارة أخي وصديقي السموأل خلف الله ، وفي كل مرة كان يتألق في المكان الجديد الذي يوجد فيه بالثقافة والفنون ، ويتوهج بالحركة والأفكار الجديدة التي لا تنضب لديه .

انه مغرم ببناء وتأسيس الأمكنة الثقافية ، والتي حالها حال المؤسسات في وطننا العربي وعالمنا الثالث ، ما أن تنتصب على قدميها حتى تأتي عاصفة فتقتلعها من جذورها .

هذه المرة أيضا ، كان قد بنى مكانا ثقافيا جديدا ، هو مؤسسة أروقه ، ومثل هذه الأمكنة لا تحتاج إلا إلى المال والناس والأفكار والإخلاص في تلمس الحاجات الثقافية الاجتماعية ، حتى تعطي مردوداتها على الصعد المختلفة ، وأهم مردود عند السموأل كما اعرف هو المساهمة في بناء الجيل القادم من المبدعين في مختلف المجالات .

حين تشرفت بزيارة أروقة ، وهي لا تكاد تغطي إلا زاوية من الخرطوم الكبرى ، تساءلت كم مركزا مثل هذا تحتاج المدينة المثلثة ، وهي تمتد امتدادا أفقيا عريضا ، وكم من المواطنين من يستطيع الوصول إلى هذا الرواق ، وكم من فن يستوعب هذا المكان ، وإذا كان هذا الرواق يؤدي خدمة جليلة جميلة ، فإننا نحتاج إذن إلى أروقة كثيرة فعلا ، كما يشير اسمها وعنوانها .

وإضافة إلى عمله الدؤوب في وزارة الثقافة والإعلام ، والهيئة القومية للثقافة والفنون ، فقد عمل السوأل على تأسيس بيت الثقافة في التسعينات ، وكان له دور كبير في تلك المرحلة وقدم من النشاطات ما يستذكرها الناس والمثقفون بامتنان وتقدير ، وازعم أنني شهدت أفضل أيام بيت الثقافة وكان لا يكاد يمر أسبوع إلا وأكون قد يممت الخطى إلى احد نشاطاته ، أو زيارته ، وهنا احيي الأستاذ عبد الحي محجوب رئيس مجلس إدارة البيت حينئذ لدوره وحسن تصديه للعمل الثقافي والفني .

بعد ذلك غادر السموأل إلى بغداد ، مبعوثا من وزارة الثقافة والإعلام السودانية ، لكي يؤسس المركز الثقافي السوداني هناك ، وكان مركزا مهما في أفضل شارع في العراق كله ، شارع الأميرات ببغداد ، وحقق نجاحا باهرا يحسب له ، وكان دوما مزدحما بتواجد الحاضرين ، وبنظام المحاضرات والمعارض واللقاءات السودانية العراقية .

يجمع السموأل في تحركه الثقافي ، ما بين الثقافة المعاصرة المنفتحة على الفنون والآداب والعلوم ، وما بين التمسك والانضباط والوازع الديني والأخلاقي الذي لا يتقاطع مع حياة العصر ، وهذه ميزة احسب أنها تؤهله دائما ، للتفاعل مع كل ألوان الطيف الفني والثقافي دون انغلاق وجمود ، ولا أجمل من تقديماته لضيوفه من الفنانين والأدباء والشعراء ، وما بين افتتاحه لبض اللقاءات بتلاوته الحنونة للآيات من القرآن الكريم ، أو الدخول في حلبة الإنشاد الديني والشدو الصوفي الحزين .

حين انتهينا من اللقاء مع الأخوة والأخوات في أروقة ، انطلق بنا السموأل إلى سوق ليبيا ، وكان معنا العديد من الأصدقاء في مقدمتهم الشاعر السوداني الكبير صديق المجتبى ، وكان ذلك المشهد الشعبي الجميل الذي ذكرني بأيام

الموصليين في زياراتهم لمنطقة قريبة من الموصل تسمى ، حمّام العليل ، ببيوتها الصيفية القصبية الجميلة ، إضافة إلى مياهها المعدنية ، حيث الشواء على الهواء الطلق ، والسياحة ذاتية داخل الإطار الوطني الخاص ، وكان سوق ليبيا بمثابة خروج على المألوف اليومي ، وإذا نشطت الأمور هناك ، وتوفرت للناس وسائل النقل ليلا ونهارا ، مع بعض التنظيم الجديد ، وتوفير وسائل التبريد وزراعة الأشجار والبساتين فسيكون للمنطقة شأن آخر .

وبيني وبين السموأل ، رهانات عديدة ، هو يعرفها ، وكان دائما يفوز بها وينتصر علي ، ويظل ما بيننا ، أفق من المحبة ، نلمحه كلانا ، كل من شباكه البعيد .

١٣ سيف الدسوقي

أعلى من قامة سيف وأرهف من حدِّه

لا أحد مثل الشاعر السوداني الكبير سيف الدين الدسوقي ، يعرف كيف يستحوذ على أسماع المستمعين وعيونهم وقلوبهم ، في وقت واحد ، سوى محمد مفتاح الفيتوري ، غير أن لكل منهما طريقة خاصة ، يعرف بها .

كأن الدسوقي حين يلقي القصيدة إنما يشكل نجوما في الأفق ، ويفتح في البراري ودياناً وجداول . كأن في يده صولجان الأباطرة القدامى من ملوك القبائل التي تقدس اللغة ، وترقص على رنين الكلمات . وكأنه أحيانا أخرى مرتل خفيض الصوت ، ندي الدمعة ، خاشع أمام محراب الحروف .

لا يتهاون في قضية السماع والانتباه ، فهي جزء من احترام الكلام ، وتمثله ، وصيغة من صيغ احترام الإنسان للإنسان ، ولون من ألوان الاحتفاء بالحوار والمحاورة ، حتى وان كانت بين شاعر يلقي القصيدة ، وسامع يحلق من خلالها في عوالم الإبداع .

لا ينفع أن ترى الدسوقي إلا هكذا ، شديد اليقظة ، قوي الملاحظة ، عزيز النفس والخطى ، لا يمشي متثاقلا ، إنما يعطي المسافات قدرة التأمل في خطواته الراسخة القوية .

حين صعد ، في آخر زيارة له إلى مصر ، ليلقي قصيدته في مهرجان القاهرة الدولي للشعر العربي ، استند على كف ولده المرافق له ، وكنت أحس من بعيد كيف أن كيان الدسوقي ، كان يتأرجح بين حالتين اثنتين ، الأولى أن يدفع باليد

المساندة بعيدا ، ليقول انه ما يزال قادرا أن يخوض الحياة لوحده ، وانه اكبر من أن يلتجأ إلى احد ليعينه على الطريق ، وما بين أن يرضخ مرغما لحكم الحياة نفسها، بعد أن استلبت بعض الضوء من عينيه ، ودفعت ببعض ضباب إلى سواحلهما .

كانت القاعة تصفق للدسوقي تصفيقا حارا ، فهو شخصية ثقافية وإعلامية سودانية وعربية بارزة ، وهو علم شعري شهدت له المنابر من بغداد المرابد ، إلى مهرجانات افريقية ، إلى إذاعة وادي النيل ، إلى تخوم الجزيرة العربية ، بصولات وجولات ، وكان صوتا متميزا وما يزال ، ومن حق هذه الفضائيات وغير الفضائيات أن تحاصره ، ليدلي بكلمة أو يبدي رأيا ، وهو يحاول الابتعاد ولكن دون جدوى .

وله في القاهرة كتائب أصدقاء ، من المصريين ومن العرب ، كانوا يأتون إليه من كتاب وشعراء ونقاد ، وإعلاميين وإذاعيين وفنانين ، ليسلموا عليه ، أو يدعونه دعوات خاصة ، وعامة .

ولقد ارتبط اسمه بوادي النيل الإذاعة الوحدوية العريقة ، وبوادي النيل النهر العظيم الذي يمسك مصر والسودان بيد واحدة ، وبوادي النيل الفكرة الوحدوية التي هي قمة الارتقاء بين شمال الوادي وجنوبه ، والتي ناضل في سبيلها المئات من أدبائنا وكتابنا وسياسيينا وجماهيرنا .

في آخر أمسية شعرية جمعتني معه في الخرطوم المحروسة ، على قاعة مؤسسة الإنتاج الإعلامي ، كان ثالثنا الشاعر الكبير ، الراحل الجميل مصطفى سند ، قرأنا جميعا لساعات طويلة ، واحتفى الجمهور الذي كان اغلبه من الشباب ، أيما احتفاء بقصائد سيف الدين الدسوقي ، خاصة تلك القصيدة العامية التي يذوب فيها الدسوقي غزلا مدللا، وعشقا رفيعا ، والتي كان الجمهور يحفظها عن ظهر قلب ،

ولكنه يكرر الطلب لسماعها من الشاعر نفسه ، مرة ، وأخرى ، وأخرى .

كان الدسوقي يحب بغداد الرشيد وابي نؤاس ، وكتب العديد من القصائد التي يتغنى فيها بدجلة والفرات ، واصدر فيها ديوانا شعريا خاصا ، وكان له فيها أصدقاء كثر لا يحصون عددا ، وكانت ليالي بغداد لا تمل من الدسوقي ، حتى أضعناها وأضاعتنا .

أما في الخرطوم ، فكنت أرى الدسوقي دائما في المهرجانات ، والجلسات الحميمة مع الكتاب والمثقفين السودانيين ، في الجامعات ، والمركز الثقافي العراقي ، في مكتبه في وزارة الثقافة والإعلام ، أو في ولاية الخرطوم أو في أي مكان كان يستقر به المقام .

وعلى ضفتي إبداعه الشعري ، الفصيح ، والعامي ، ظل الدسوقي صوتا له ملامحه الخاصة ، وله لونه المتميز ، وعلامة من علامات الثقافة السودانية العربية التي تتيح للدارسين فضاءات لا تنقص ولا تنتهي .

اصدر الكثير من الدواوين والكتب منذ الستينات من القرن الماضي ، وشارك في مئات المنتديات والمحافل والملتقيات ، كتب عنه الكثير وما زال لم يدرس كما ينبغي دراسة أكاديمية فكرية وفنية .

وكان له دوره البارز في تعزيز مسيرة الإذاعة والتلفزيون السوداني من خلال عمله الإعلامي الدؤوب ، وترك بصمات أصابعه على الكثير من تفاصيل المسيرة الإذاعية في السودان .

تجاوز الدسوقي الآن السبعين من أعوامه المديدة ، كتب الكثير ، وقرأ الكثير ، أحب السودان وخاصة أم درمان التي يعشقها لطيبة أهلها ، وسكينة فضاءاتها ، وامتداد شطآنها .

وسيبقى أمد الله في عمره ، وأثرى نتاجه ، واحدا من الذين سطروا أسماءهم بقوة وإبداع عـلى سـطح ، وفي أعمـاق مسـلة الثقافـة العربيـة الرصـينة ، لـيس في السودان وحده ، وإنما على طول وعرض الوطن العربي .

١٤ صديق المجتبى
الإنجاز الشعري الخاص والدور الثقافي العام

ربما تأخرت قليلا ، وإنا احتفل اليوم بأخي وصديقي الشاعر السوداني الكبير صديق المجتبى ، ذلك انه كان من أوائل الشخصيات الثقافية والأدبية ممن تعرفت عليهم في بغداد ، عاصمة الفن والشعر والمهرجانات المختلفة في كل مجالات الإبداع ، من خلال مشاركاته المستمرة في مهرجانات المربد وغيرها من المناسبات الثقافية والفنية والأدبية .

وكان عام ألف وتسع مئة واثنين وتسعين ، بداية التعارف المباشر واللقاء الحار معه ، ومع شعره الذي القى بعضا منه في قاعة الرشيد ببغداد ، وبعضا آخر في قاعة جامعة الموصل (الجليلي كما سميت لاحقا) ، حيث كانت تقام فعاليات المهرجان الثقافي الأول أم المعارك ، بعد العدوان الأمريكي الغاشم على العراق في حينه ، وكان هذا اللقاء الأدبي العربي ردا عربيا شاملا على ذلك العدوان على بلاد النهرين دجلة والفرات .

ونحن في الحافلة التي أقلتنا إلى الموصل ، ظللنا نتحدث طوال الطريق عن الأدب والشعر والعراق والسودان ، وتحدثنا أيضا عن المشاريع المقبلة التي نتطلع إلى إقامتها في الخرطوم في المركز الثقافي العراقي .

كان البرد شديدا ، والثلج الناصع منتشرا على الروابي والتلال الخضراء القريبة من مدينة الموصل في شتاء استثنائي ضارم ، وصديق ملتف بمعطفه الأسود السميك .

نالت قصائد الشاعر صديق المجتبى الحماسية التي يلقيها وهو يحفظها عن ظهر قلب ، قبولا كبيرا من الجمهور في بغداد وفي الموصل ، خاصة وانه أيضا يجيد إلقاء الشعر ، وكان حضوره شديد الوضوح والتألق ، خاصة في تلك القصائد التي تتناول موضوعا عربيا نضاليا مقاوما ، فهو يجيد التوسع فيه والإحاطة بمختلف زواياه ومناحيه ، دون أن يفلت خيط الشعر من بين أصابعه ، ودون أن يقع في المباشرة أو النثرية . وهذا ما رايته يؤكده أكثر في السنوات اللاحقة حين كنت في السودان واستمع إليه دوما ، وما كنت أخشاه فقط على صديق مجتبى هو احتمال وقوفه على الموضوعات الوطنية والقومية ، وأشير إلى كلمة احتمال باللون الأخضر ، ذلك انه كتب في كل الموضوعات ، ولا ادري أن كان كتب غزلا أم لا .

كتب صديق المجتبى قصائد عديدة وقف فيها مندددا بالعدوان الأمريكي على العراق ، وعلى شعبه ، وكشف حجم معاناة العراقيين وآمالهم وتطلعاتهم ، وسوف تبقى هذه المواقف في الذاكرة العراقية أبدا . كما كتب عن فلسطين وهموم الأمة العربية في كل مكان .

وظل مشاركا في التجمعات الثقافية والشعرية ، داخل السودان وخارجه ، وهو الآن من ابرز الأدباء المعروفين عربيا .

وإذا كنت قد أشرت إليه آنفا كشاعر مبدع ، فهو في الوقت ذاته ، من الكادر الثقافي السوداني الذي تبوأ وما يزال مواقع مهمة في العمل الثقافي ، وعمل جاهدا مع رفاقه لتطوير العملية الثقافية والفنية طيلة عقود ، وآخر منصب له رأيته فيه ، هو قائم بأعمال الأمين العام للهيئة القومية للثقافة والفنون ، وهو موقع هام لابد أن يأخذ دوره الفعال في الحركة الثقافية السودانية داخليا وخارجيا ، وانطلاقا من حبي للسودان والسودانيين ، سأصدق صديق القول : أن ما لمسته من عمل الهيئة لم يسر الخاطر ، إذا ما قارنتُ الواقع الحالي مع تجربتي مع نشاطات الهيئة ، أيام

مكوثي في السودان في التسعينات ، ربما تكون هناك أسباب كثيرة للواقع الحالي لا اعرفها ، ولكن لابد من السعي لإعادة الوجه المشرق لعمل الأجهزة الثقافية السودانية ، حين كانت تموج بمختلف أنواع الإبداعات الثقافية والفنية ، فالذي يبقى ذخرا للشعوب هو المآثر والأوابد الثقافية .

ما الذي سأحكيه بعدُ عن الشاعر الكاتب الإعلامي صديق المجتبى ، الأحاديث كثيرة ، والذكريات مليئة بالمحبة والشعر والإبداع ، والقادم سيكون أجمل بكل تأكيد طالما ظلت النفوس مشرقة بالإبداع والثقافة والحياة .

١٥ الوزير الشاعر عبد الباسط سبدرات يستبقيني في الخرطوم

١

كنت على وشك أن أغادر السودان ، بعد اقل قليلا ، من ثلاث سنوات من العمل الإعلامي والثقافي الجميل ، والحياة الرائعة المنسابة ، المندغمة في الحياة الأدبية والفنية والصحفية والاجتماعية السودانية ، بشكل أكثر من وصفها بالحميمية .

حزمت حقائبي ، وجمعت أوراقي ، وودعت عددا كبيرا من أصدقائي وأحبائي ، وزرت عددا من الأماكن والمناطق الأثيرة ، في أم درمان وبحري والخرطوم ، ولم يبق على السفر غير أسبوعين اثنين .

كنت قد قضيت ذلك الوقت ، مستشارا صحفيا ، ومديرا للمركز الثقافي العراقي في السودان ، وفي شارع الزعيم الأزهري في الخرطوم بحري ، الذي لم نكن قد افتتحناه رسميا ، بعد ، بانتظار مناسبة أو زيارة مسؤول من بغداد ، إنما كنا نمارس فيه العمل الثقافي والإعلامي ، في تجربة فريدة من نوعها ، في العمل الدبلوماسي الثقافي العربي ، في بغداد والخرطوم ، حيث اتفق الجانبان على توفير المبنى ، والموظفين ، والمال وما يلزم ، كل للآخر، ويكون مدير المركز فقط ، من الدولة المستضافة ، وكان ذلك عبورا ذكيا ، على كثير من الصعوبات الإدارية والمالية .

صدفة ، يقوم وزير الثقافة والإعلام العراقي في حينه الأستاذ حامد يوسف

حمادي ، بزيارة إلى الخرطوم .

في احد لقاءات الزيارة هذه ، وكنا بانتظار دخول الوفد العراقي إلى مكتب الرئيس البشير ، يفاجئنا الأستاذ عبد الباسط سبدرات ، وزير الثقافة والإعلام السوداني ، قائلا لرصيفه العراقي : لدي طلب إليكم .

فأجابه الوزير العراقي : أبشر .

قال سبدرات : نحن نعلم الصعوبات المادية التي تواجه العراق ، ونقدر الوضع الذي جعلتكم تقفلون عدة مستشاريات ومراكز عراقية في الخارج ، ومنها الذي عملنا عليه في الخرطوم ، وما زلنا ، ولكننا راضون عن عمل مدير مركزكم هنا ، وعن علاقاته ونشاطه الواسع ، وأنا أرجو أن يلغى أمر عودته إلى العراق ، لا سيما وأننا سنرسل مدير مركزنا إلى بغداد ، قريبا جدا ، كما يهمنا ، أن تنجح هذه التجربة الجديدة على نطاق الوطن العربي .

قال الوزير العراقي : صار ، باللهجة العراقية ، ثم خاطبني قائلا : لا تغادر الخرطوم ، وقال للسفير عبد الصمد حميد ، رحمه الله : بمجرد عودتي سأرسل برقية بذلك .

بعد أيام من مغادرته ، وصلت البرقية ، وبقيت سنتين أخريين ، اجتهدنا أن يكون المركز علامة تاريخية ، عن العلاقات العراقية السودانية ، بقيادة الوزير سبدرات ، والأستاذ الكاتب المثقف أمين حسن عمر ، وكيل الوزارة حينئذ ، والراحل الصديق الغالي ، الفنان احمد عبد العال رئيس الهيئة القومية للثقافة والفنون ، والقافلة الجميلة النبيلة الرائعة ، على هرم الهيئة ، كلها من بعد ، صديق المجتبى ، والخاتم عبد الله ، وكل من ينتمي إلى الثقافة والآداب والفنون ، نساء ورجالا ، موظفين وعمالا ، مثقفين وإداريين .

وافتتح الأخ السموأل خلف الله المركز الثقافي السوداني في بغداد ، في شارع الأميرات ببغداد ، ونجح نجاحا باهرا مشهودا ، ومن بعده الأخ خالد سلب ، الذي واصل العمل هو الآخر ، بنفس الهمة والاجتهاد .

ولكن (كل حال يزول) .

وأنا دائما اشعر بفخر واعتزاز لا يوصفان ، لقد كانت شهادة عظيمة من الوزير الشاعر ، عبد الباسط سبدرات لصالحي ، أمام دولتي وحكومتي ، ظل يضرب بها المثل هناك في بغداد ، طويلا ، أن مثلها لا يمنح إلا نادرا ، وهي دليل على محبتي وإخلاصي ووفائي وانتمائي للسودان ، كانتمائي للموصل وبغداد والعراق والأمة العربية .

رافعا تقدير أهل السودان العزيز لي ، يشماغا عربيا فوق رأسي ، ووشما أبديا فوق صدري ، حتى كرمني سيادة الرئيس عمر البشير ، أدامه الله ، هذا العام ٢٠٠٨، بمنحي الجنسية السودانية ، وهل أعظم من هذه الأمنية ، وهل اكبر من هذه الثقة ، التي أرجو الله مخلصا ، أن يعينني على الوفاء بها ، خير الوفاء .

وها أنا ذا ، قد سجلت اسمي في سجل الناخبين ، في الانتخابات السودانية القادمة ، مرددا في سري :

أنا سوداني أنا .

قصيدة : (في حضرة طه اعترف)

الشاعر عبد الباسط سيدرات

٢

مرة وأنا قادم من دمشق إلى الخرطوم ، والطائرة تحلق بنا ليلا في السكون الكوني المهيب ، حتى سمعنا قائد الطائرة ينبهنا إلى أن ننظر من النوافذ اليسرى ، لنرى على البعد أنوار المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ، وحين ألصقت وجهي بالشباك الصغير ونظرت إلى المشهد العظيم ، لم أجد نفسي إلا وأنا غارق بالدموع الحرّى التي ظلت تتساقط من عيني ، وصار قلبي كأنه طائر عليل ، يرتجف أمام هذا الصرح البعيد من النور والمهابة والجمال .

وكلما وقعت بيدي قصيدة الأديب الشاعر الوزير عبد الباسط سبدرات ، التي أهداني إياها في إحدى زياراتي إلى الخرطوم ، أتذكر ذلك المشهد الجليل ، وأتساءل ترى ماذا سيصيب الإنسان حين يدخل المسجد نفسه ويصلي فيه ؟! وأدعو الله عز وجل أن يجعل لنا إليها سبيلا . (وتحقق أملي عام ٢٠١٠ للحج والحمد لله).

ولعل كثيرا من الشعراء والأدباء والكتاب طيلة العهود القديمة والحديثة ، كان ينتابهم الشعور المتوقد نفسه ، وهم يقتربون من هذا العالم الطاهر المسور بالإيمان والتقوى ، حيث يقف الإنسان مسائلا ذاته عن الذي مضى ، مؤملا في الذي يأتي من المغفرة والتوبة والحنان الإلهي . حتى أن قسما كبيرا منهم جاوروا مكة والمدينة ، وعاشوا في المدينتين المقدستين فترات طويلة .

الشاعر الوزير السوداني عبد الباسط سبيدرات من الأدباء الذين حين يكتب شيئا من نثر أو شعر ، فأنه ـ كما يخيل لي ـ يفعل ذلك بعد أن يكون قد وقع تحت ضغط إبداعي ونفسي خاص لا مراء فيه ، وطوقته كيمياء الحروف بهالاتها المقدسة ، وهذا ما أجده قد حصل حين عاش هذه التجربة الإيمانية العظيمة ، حيث بدأ يكتب بعدها قصيدته الجميلة المؤثرة (في حضرة طه اعترف) .

ولعله حين افرد لها مطبوعة منفردة ، كان يقصد إلى أنها ، حتى وان كانت محدودة الصفحات بعشرين صفحة ، وحتى لو كانت طباعتها بسيطة فإنها تأخذ عظمتها من المضمون السامي الذي عبرت عنه ، إذ يكفي انه يتحدث عن سيد الكائنات محمد صلى الله عليه وسلم في حضرة مسجده المنير الذي شكلت صوره خلفية الصفحات كلها ..

وعبد الباسط سبدرات إضافة لكونه ناثرا وشاعرا ، فانه خطيب مفوه تتداعى إليه الكلمات ، وتتزاحم أمام بابه الحروف ، لغته عالية مكتنزة بالصور والأمثلة والاستشهادات المختلفة ، وإلقاؤه واضح بين ، فهو محام وحقوقي أيضا ، وهو قبل هذا وذاك قارئ شديد الانتباه لما يقرأ ، ومن ثم له آراؤه النقدية السديدة .

يحيلنا العنوان إلى ثلاثة موضوعات هامة ، أولا الحضور الشخصي والنفسي والإيماني إلى الرسول الكريم في مسجده الطاهر ، وثانيا إعلان الهدف من هذا الحضور البهي وهو طلب الغفران حيث سيغتسل الإنسان من كل آثامه في الدنيا ، وثالثا استخدام تسمية (طه) التي تحيلنا إلى قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) وما فيها من محبة وبشرى للنبي الكريم ولمن يتمسح بثوبه الطاهر ، وما تعطيه اللفظة من تفاؤل باستجابة المولى للدعاء .

هكذا ودون مقدمات يدخل الشاعر إلى موضوعه مستفيدا من مناسبة مولد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فيقول :

ها أنا ذا ..

في ليلة مولدك الغراء

آتيك ذليلا ..

حافي القدمين

حسير الرأس ..

مكسوراً مشطورا نصفين .

نصف يبكي يأسا ..

والآخر يفديك ..َ

بنور العين . .

المشهد النوراني يزلزل كيان الشاعر ، وتنهال على ذاكرته تلك الصفات النبوية الشريفة ، والطهر الرباني الذي يحتوي الكائنات ، والتجرد من الدنيا وزخرفها ، والوصول بالنفس إلى القناعة الحقيقية المطلقة بأن مصير الإنسان في مهب الريح أن لم ينته إلى التوبة والمغفرة :

يا من تهدي الناس

لرب الناس .

انزع من صدري

من ناصيتي

من خاصرتي

الوسواس الخناس .

ألهمني أن اكتب في مدحك شعرا

فيه أشم قوافي حسّان

درويشا في الساحات

يغني

مدحا في عدنان

يجاري البردة

يلبسها إحراما وإزارا جلباب

يطرق كل الأبواب

بالنوبة يرزم مدحا في العدنان

بالطائر ينثر عطرا في الأكوان

إنشادا وحداء إجلالا للرحمن .

والشاعر في سبيل الوصول إلى غاياته ، يستند ويشير إلى بعض الموروث الثقافي والديني والأدبي الذي حفل بصور المديح للرسول الكريم عبر خمسة عشر قرنا من الزمان ، ابتداء من بردة كعب بن زهير وقصائد حسان بن ثابت ، إلى بردة البوصيري ، إلى بردة احمد شوقي ، كما يستفيد من الكثير من الإشارات القرآنية ، وأسماء السور والشخصيات الإسلامية وغيرها ، هذا إضافة إلى الإيحاء

بمجاهدات الطرق الصوفية وانصرافها المتقن إلى مديح رسول الله في اغلب مناسباتها ولياليها العامرة بالإيمان .

القصيدة وقفة إبداعية إيمانية ، بسيطة التكوين ، غير معقدة ولا صعبة الفهم بحيث أنها تصل إلى كل المؤمنين بمختلف مستوياتهم الثقافية ، ولعلني حين أشرت في بداية هذا المقال إلى إمكانيات الشاعر اللغوية والأدبية ، قصدت انه تعمد أن يكتب هذه القصيدة بلغة سهلة بسيطة ، فهو ليس قاصرا عن الإتيان بأصعب المفردات والكلمات .

في ليلة مولدك الخضراء

كورق الجنة

بربيع تبقى كل الدنيا خضراء

فأملأ كفي من ثمر الجنة

أطعمني رطبا من نخل الجنة

القصيدة إذن نفحة شعرية إيمانية ولدت من قلب يبكي في حضرة رسول الله ، بلغة شفافة وكلمات عذبة ، تصل الأفئدة والأسماع ، وتؤكد قدرة الشاعر في الوصول إلى هدفه الموضوعي والفني .

على حصيرة الشيخ

١٦

عبد الرحيم البرعي

كان الفجر قد استيقظ توا ، وأزاح بكفيه النديتين ، ما تبقى في عينيه الشاسعتين ، من غيوم الوسن المطمئنة الظليلة .

حين عبرتُ من الخرطوم إلى بحري ، فوق الجسر الحديدي الأخضر الغامق العتيق .

كان النيل العظيم يتمطى مثل كائن أسطوري عملاق ، طالع من ليالي ألف ليلة وليلة ، ومسفوح تحت مركب السندباد البحري ، وهو يبعد إلى جزر الواق واق ، ينشر أثوابه على ضفاف المدينة المثلثة ، المرسومة بريشة الماء الأزرق الشفاف ، والصباح الأنور القادم من الخيط الأبيض ، والمسرود على صفحات الأبدية ، روحا من روح الله ، الذي مسح على رأسها بمحبته الغامرة ، وعنايته الوسيعة .

كانت السكينة والصفاء الشامل ، يعبران بنا إلى أم درمان ، ونحن نتوجه إلى تلك الباحة المسورة ، بسورة الفاتحة ، وآية الكرسي الشريفتين ، ومحاطة بالرجال والنساء والشيخ والأطفال ، وبهمهمة غامضة تسري في فضاء قدسي ناعم ، وحميم .

ليس سوى غلالة من النور والعتمة ، وارض من الطين البني المرشوش بالندى ، وحصران ممدودة هنا وهناك ، وماء الوضوء ، وعيون تتقي الله في حلها وترحالها ، وأجساد شفيفة ناحلة ، تتقرب من أولئك الذين نسوا الدنيا ، فوعدهم الله بالنعمى في الآخرة ، وجوه معلمة بالطيبة والهدوء والإيمان الطافح والدوع ، مئات من البشر الصامتين ، إلا من الأدعية ، وارتجافات القلوب ، وانزياحات

العيون ، يسهرون جنب سريره ، ويتطلعون إلى حديثه الهامس الشفيف ، والى ملامسة يده المباركة الحنون .

حين عانقته ، سَرى في جسدي بلسم الراحة ، وعسل الطمأنينة ، وحين سقاني كاسا من لبن الناقة البارد ، أعانني على عطش الأيام القادمة ، وجفاف الشفتين الذابلتين ، وملأ قلبي بمحبة الكائنات كلها ، وثبت في أعماقي أسرار جمال النفس البشرية ، المتطلعة إلى دوام الخير والإيمان ، والعمل ، سألني ، وأجابني ، ودعا لي ، صليت خلفه ، ورجعت منه بِنفحَة أزلية دائمة ، ما دامت الأيام .

زرع في نفسي القدرة على أن اكتب فيما بعد كتابي محمد صلى الله عليه وسلم قمر الأناشيد .

وظل ذلك اللقاء الرائع مع الشيخ الشاعر ، المتصوف الكبير ، عبد الرحيم البرعي ، نهاية عام ١٩٩٦ ، يتجدد في داخلي ، وظللت استعيد حديثه المبلل بالسماحة والندى .

وكان معي الصديق الجميل مجدي محمد عبد الله ، ومعنا أزواجنا .

وكتبت بعد ذلك فيه قصيدة ، عنوانها (مديح أوَّل) ، نشرتها بعد لقائي به بأسابيع قليلة في جريدة الإنقاذ الوطني وأهديتها إليه ، حيث صورها الكثيرون وتداولوها ، ، قلت فيها :

قَمَرٌ شاسعٌ
وأَهِلَّةٌ مئذنة
وأذانْ .
....

مشهدٌ غامضٌ

شبه ضوءٍ

هنا

وشبهُ ظلام .

....

لغة دون صوتٍ

مُحِبّونَ دون قيود

....

كَأنَّ وشاح اليقين

يغطي المكانْ .

والزمانْ .

صار حلما لديكَ

السماوات والارضون

نشيد إلهيٌّ

جمع الخلائق

نبض

ومعجزة

ويداكَ تشدّانِ كفَّيَ

قلبكَ يسمع همس فؤادي

وأنت تقدم كأس الحليب إليْ

وتقرأ لي آيةً

وعلى نصف سجادةٍ

من تراب طهور

وسعف

تصلي بنا

فقراء

مريدين

عشاق

مغتربين

ذوي حاجة ..

....

يغمر النور صدري

وقلبي يردد في فرح غامرٍ

واسىً حائرٍ

يا لَهذه المحبةِ

يا نهر هذا الحنانْ .

١٧ الشاعر عبد القادر الكتيابي عربيًا

الشاعر السوداني الصديق ، عبد القادر الكتيابي ، احد الأسماء الشعرية ، المعروفة ، في السودان ، والوطن العربي .

التقيه على فترات ، متباعدة ، في القاهرة أو الخرطوم ، واغلبها ، دون موعد سابق ، ولكنني أتذكر دوما ، قصيدته المشهورة ، على كيفي ، التي قرأتها منذ زمن بعيد ، ثم حين قرأت ديوانه فيما بعد .

وحينما كنت مديرا ، للمركز الثقافي العراقي في الخرطوم ، بين عامي ١٩٩٢-١٩٩٦ ، كان الكتيابي خارج السودان ، واعتقد ، انه كان يعمل ، في إحدى دول الخليج العربي ، وكان شقيقه الشاعر والكاتب ، عبد المنعم الكتيابي ، يوصل لي آخر أخبار أخيه وكتاباته ، وهو خارج السودان .

في القاهرة ، بجمهورية مصر العربية ، شاركت ، وإياه ، في أمسيتين شعريتين جميلتين ، مرة بأمسية إقامتها الجالية السودانية ، في حي السادس من أكتوبر، لمناسبة وطنية سودانية، ربما كانت عيد الاستقلال ، وكان معنا أيضا ، الشاعر القذال ، ومرة أخرى ، في أمسية شعرية ، وفنية ، أقامها مكتب الحزب الوطني السوداني ، في مصر الجديدة ، لمناسبة عيد المولد النبوي الشريف ، وكانت معطرة بالشعر ، وبالأخص ، بذلك الهيمان الصوفي ، الذي تمنحه ، أناشيد المديح السودانية ، والتي تنقل السامع إلى مدارات ، من المحبة ، والإيمان ، حتى البكاء ، وحضرها سودانيون ، ومصريون ، وعرب ومن دول إسلامية

مختلفة .

في احد الأعداد الأخيرة ، من مجلة أخبار الأدب المصرية ، أجرى الكاتب الصحفي صلاح خليل ، حوارا مع الشاعر، حول إبداعه الشعري ، وإبداع مجايليه ، وعن الحركة الثقافية والفنية ، في السودان ، ولعل أجمل ما أشار إليه المحاور ، أن الكتيابي ، يتميز ، عن أبناء جيله ، بوصفه شخصية قومية ، لم ينحز طوال المراحل السياسية ، التي مر بها السودان ، إلا للوحدة القومية ، والهم الوطني ، والانحياز التام ، للعامة والبسطاء ، من شعبه .

أما الشاعر فقد أشاد ، في بداية حديثه ، بعملية التواصل الأدبي ، بين مصر والسودان ، مشيرا إلى التاريخ العريق ، المشترك ، لهذا الجزء من العالم . وضرب على ذلك أمثلة ، حيث ذكر عددا ، من الشخصيات الأدبية السودانية ، منهم معاوية نور ، وهو احد ابرز الكتاب ، الذين لازموا العقاد ، وتناول بالدراسة جميع أدباء جيله ، من المبدعين المصريين . بالإضافة إلى أن معظم الشعراء السودانيين درسوا ، في كلية دار العلوم ، بالقاهرة ، ونتيجة لذلك ، التقى المثقفون المصريون، بشعراء مثل الراحل محمد عبد الوهاب القاضي ، والشاعر يوسف بشير ، والشاعر محمد الفيتوري ، والشاعر محي الدين فارس ، والشاعر عبد الله الشيخ البشير ، والشاعر الهادي ادم ، لذا يمكن القول ، أن الساحة الأدبية في مصر عامرة، بالبصمات السودانية ، والعكس صحيح .

وحول ما إذا كان التعبير عن الهوية السودانية ، يظهر في الشعر الغنائي السوداني الشعبي ، أكثر من الفصيح ، قال الشاعر الكتيابي ، انه ربما وصل إلى المتابعين ، من العرب ، النتاج الثقافي ، لعرب السودان ، وطبيعي ، إلا يكون قد وصلهم ، ما في الأدب النوبي في السودان ، أو آداب ، ومنتجات ، قبائل الجنوب، والشرق ، والغرب . فحينما نقول الهوية السودانية ، نعني بها هذا النتاج ، المكتوب

والمتداول بالعربية ، لا يكون التناول شاملا ، دقيقا ، فهناك ثقافات متعددة ، والسنة مختلفة ، وهذا لا ينفي ، حقيقة أن التعايش الطويل ، بينها قد كون ذائقة مشتركة ، أسست لمشروع قومي ، كان مبشرا ، بتحقيق المسوغ ، لاستخدام كلمة هوية سودانية ، مشيرا إلى انه يعني بهذا المشروع ، ما حدث من انصهار ثقافي ، للعرقيات ، والثقافات ، والألسن في مدينة (أم درمان) التي كانت سودانا مصغرا، بفعل التعايش التلقائي ، البسيط ، والذي أسهمت الإذاعة الواحدة، والتليفزيون الواحد ، والصحافة المحدودة ، في تأصيله .

تحدث الكتيابي أيضا ، عن العامية السودانية حيث أشار إلى أنها ، كما أثبت أستاذنا العلامة ، عبد الله الطيب ، أقرب العاميات العربية ، إلي الفصحي، فهي: - عربية غير معربة بعلامات الإعراب- ، وفي ذلك شاهد ، على أصالة الانتماء ، في قبائل عرب السودان ، الذين يتحدثونها على السليقة ، فضلا ، عن أن لها أبعادا وجذورا عقائدية ، لدى غيرهم في السودان ، حيث أن تعليم القرآن الكريم في السودان، تراث قديم ، ألقى بظلاله، علي الوجدان السوداني .

أما عن الأدب الصوفي السوداني ، يقول الكتيابي : في زماننا هذا، وفي رأيي الشخصي، ليس هناك منتج حديث ، في الأدب الصوفي، وما ينسب إليه ،لا يعدوأن يكون ، افتتانا به ، وتوقا لزمانه ، أو تقليدا ، يستغل انحسار المعرفة به في مجاميع المتلقين، فقد كان العلم عند المتصوفين ، هو الشرط الرئيس والجادة الوحيدة لذلك ، هي - محبة الله - ، ويوضح الكتيابي قائلا :' يدور مفهوم كلمة التصوف، منذ بروز هذه الظاهرة، حول الزهد في الدنيا ، والانقطاع للعبادة ، كما وصف به أهل الصفة ، الذين عاصروا عهد الرسول صَلّى الله عليه وسلم ، ومن تلاهم من الذين عنوا ، بالإخلاص ، وتمحيص النوايا، أي أن المسألة في مجملها ممارسة ذاتية ، وعلاقة شديدة الخصوصية ، بين العبد وربه، ليست جماعية في

بدايتها. التطور الذي حدث لها عبر القرون ، جعل منها تبعيات ، لمشيخات وعلماء . في حين أن المنهج ، لا يزال واحدا ، وإن تعددت وكثرت الطرق .أفرزت هذه المعرفة أدبا غزيرا ، منذ بداية هذه الظاهرة ، عرف فيما بعد ، ب-الأدب الصوفي- أو-أدب المتصوفة-، ويمكن أن يصنف الي أغراض مختلفة ، منها التهويم ، والاستغراق المعرفي ، والشطح، ومنها الأغراض الوعظية ، والوجدانية الخالصة ، ومنها مساجلات ، ومناظرات الملل الأخرى ، كما في شعر الإمام البوصيري ، وكثير منها في مدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، ومناقب الصالحين.

وتحدث الكتيابي ، عن شؤون، وشجون أخرى عديدة ، تضمنها الحوار ، خاصة في مثل هذه الصحف المتخصصة ، والتي يشرف عليها أدباء كبار، مثل الروائي والكاتب جمال الغيطاني، والكاتب القصصي والناقد ، عزت القمحاوي وغيرهما . أن أكثر ما لفت انتباهي في الحوار ، هو تلك البصمة الواضحة ، التي بدا من خلالها الشاعر ، إنسانا ، وطنيا قوميا إنسانيا ، يعرف كيف يصرف الكلام ، بحيث يستطيع القارئ أن يخرج بنتيجة واضحة المعالم ، والأهداف . وفي الوقت نفسه استطاع الشاعر الكتيابي ، أن يعبر عن كل السودانيين ، شرقا ، وغربا ، شمالا وجنوبا ، وان يسلط الضوء ، على نسيج الثقافة السودانية ،المتنوع ، والثر ، وان يفسر ، كيف أن ذلك هو مدعاة وحدة في التنوع ، وسبيل إبداع متواصل .

إضافة إلى كل ذلك ، فان الشاعر كان على دراية كبيرة ، بخريطة الإبداع السوداني وتفاصيلها . وتلك فضيلة لابد منها ، حين يقدم المثقف صورة ما ، عن بلده وشعبه خاصة في المنتديات العالمية ، واللقاءات الثقافية العربية والدولية .

١٨ الفنان الكبير عبد الكريم الكابلي عربيًا

على ضفاف نيل القاهرة، المنساب من محبة نيل السودان، وإذ تصدح الأغنيات بتدفق الحياة، وولادة النجوم الجديدة، في سماء الإنسان العربي، وفوق ترابه الحاضن لمجد الخضرة، يرتقي الفنان السوداني الكبير عبد الكريم الكابلي، مشاعر وعقول الجالسين على مقاعد الصالة الكبرى، بنقابة الصحفيين المصريين بالقاهرة، المنصتين إلى هذا الصوت الملائكي القوي، القادم من ظلال الأبنوس، ومن أشجار التبلدي، من مياه بحر القلزم الأحمر الصخاب، ومن ليالي الغابات الاستوائية اللانهائية.

كان المنصتون في القاعة من مصر وليبيا والعراق وسوريا وفلسطين والمغرب ولبنان والخليج العربي، كثيرون جاءوا لكي يشاركوا صحفيي قاهرة المعز، في تكريم ابن بار مبدع وأصيل، من أبناء السودان والأمة العربية والإنسانية.

وأنا إذ انظر إليه، اذكر سنوات خلت، كنت اسمعه في أم درمان، وأنصت إلى ثقافته الوسيعة في الخرطوم، واسهر معه في ليالي بحري، والآن ـ وأنا على المنصة ـ سأقول فيه أمام هذا الملأ، ما تكدس في قلبي من عشق الغناء السوداني، الذي لا مثيل له في الدنيا، وبصوت عبد الكريم الكابلي الذي ظل وما يزال، يدهش الناس بخصوصيته وتفرده.

في (بور سودان)، خليلة الرياح، والمراكب، والصواري، والمواويل البحرية، والنخل، والنجوم، كان لهب الشموع المرتجفة بين الفجر والندى،

وأدعية الأهل ، والعشيرة ، الموشاة بزخارف الحناء ، يبشر الساهرين بولادة صبي، لأب ظل يتمناه ، وهو يعزف الحان الأمل والفرح . ومنذ رضعة الحليب الأولى ، رشف الطفل ، من ينابيع اللحون ، والأنغام ، وفتح عينيه ، وهو يطالع تكوينات وأشكال الآلات الموسيقية ، لدى والده الفنان المثقف المعروف ، عبد العزيز الكابلي .

وبحسه المرهف ، وإدراكه المبكر البصير ، عرف الصبي عبد الكريم ، أن القدرة اللاهية ، منحته تاج الإبداع النادر ، وصولجان الغناء والموسيقى ، فصوته يجمع بين القوة والشفافية ، بين الطرب والتأمل ، وأداؤه مرتب سلس مقنع ، وصدى ترنيماته ودندناته ، بدأت تنال الرضا والإعجاب ، منذ أن كان طالبا في المدرسة المتوسطة ، وأثار انتباه أساتذته وزملائه الطلاب .

لم يتردد عبد الكريم الكابلي اذ ذاك ، عن الإمساك بزمام المبادرة ، واستلهام الفرص ، لتطوير مشغله الفني ، وصقل موهبته ، متابعة ، ودراسة ، وتدريبا ، وغوصا في إدراك ماهيات ، وأصول ما ينتظره ، مستقبلا ، فاستوعب المشهد الغنائي ، والموسيقي السوداني ، وظل يواكب ، ويعمل ، ويؤسس ، فنا ، وثقافة ، ومشاركات ، حتى تربع على عرشه ، بجدارة ، وتواضع ، وتفرد .

حتى جاءت تلك اللحظة التاريخية ، في عام ١٩٦٠ ، حينما وقف عبد الكريم الكابلي ، امام الرئيس المصري الراحل ، جمال عبد الناصر، وغنى قصيدة الشاعر السوداني الكبير تاج السر الحسن ، (أنشودة لآسيا وإفريقيا) ، وأنصت له ، سكان ثلاثة أرباع الدنيا ، لهذا الهدير الجديد ، المولود مع ولادة حركة عدم الانحياز، ومؤتمر باندونج باندنوسيا ، أيام نهرو ، وسوكارنو ، وتيتو، وكانت تلك المناسبة ، هي بوابة الفن الكبيرة ، التي دخل منها الكابلي ، ابن الثغر السوداني ، بور سودان ، إلى عالم الغناء العربي ، ولكي يشكل أروع انجاز ، للأغنية السودانية ،

والعربية والأفريقية ذات الخصوصية الفريدة ، والعوالم الاستثنائية :

(عندما اعزف يا قلبي
الأناشيد القديمة
ويرف الفجر في قلبي
على اجنح غيمه)

كان ذلك اليوم المشهود ، ليس فقط ، بداية الشهرة الكبيرة ، للكابلي ، إنما كان أيضا ، انطلاقة للقصيدة العربية الفصحى ، في المشهد الغنائي والموسيقي السوداني ، أيضا ، ناهيك عن اكتشاف الشعب السوداني ، نفسه ، انه اقرب ما يكون ، تعاطفا ، وفهما ، وتجاوبا مع القصيدة الشعرية ، وكانت تلك الوقفة ، قد منحته أيضا ، شهادة الاصطفاف مع تلك المجموعة الخالدة ، من الفنانين ، الذين وضعوا أوطانهم ، في الصميم من أهدافهم الفنية ، ومثلوا الأغنية الوطنية والقومية، والإنسانية ، خير تمثيل ، منذ منتصف خمسينات القرن الماضي .

وحينما وقف الكابلي ، أمام سيدة الغناء العربي ، أم كلثوم ، ليصدح بقصيدة أبي فراس الحمداني :

أراك عصي الدمع ، شيمتك الصبر
أَما للهوى ، نهي عليك ، ولا أمر
بلى ، أنا ، مشتاق وعندي لوعة
ولكنّ ، مثلي ، لا يذاع ، له سر

ذكّرَها بعظيم أدائها ، للقصيدة ، والمح إلى عظيم أدائه ، لها ، ولكن بشكل وأسلوب آخر ، إذ تلبس الأغنية الآن ، الجلابية والعمة السودانية الخاصة . ولم ينس الكابلي ماساة فلسطين ، فغنى لها :

بدمي

سأكتب فوق أرضك

يا فلسطين اسلمي

وأموت يا يافا

شهيد الوعد

واسمك في فمي

لقد توجه عبد الكريم الكابلي ، في فنه الراقي ، إلى كافة فئات الشعب السوداني ، والعربي أيضا ، وخاصة الطبقات المثقفة المستنيرة ، وعبر عن مختلف جوانب حياة المجتمع السوداني ، وتطلعاته ، وأهدافه ، غنى للوطن والأمة والشعب ، وغنى للرجال ، والنساء ، والأطفال ، غنى للإنسان ، في العالم العربي ، والإفريقي ، ولكل البشر أينما كانوا ، على ظهر البسيطة ، ندد بالظلم ، والعبودية ، والقهر ، وهاجم الفقر ، والحروب ، وأشاع في الناس ، الحب ، والجمال .

ومثلما أبدع الكابلي ، في الغناء والموسيقى ، فانه أبدع أيضا ، في كتابة الشعر، المغنى ، وغير المغنى ، كما قام بمتابعة الشان الموسيقي والغنائي

السوداني ، بحثا وكتابة ونقدا ، باللغتين العربية والنجليزية .

ونحن في القاعة الكبرى ، بنقابة الصحفيين المصريين بالقاهرة ، إذ نحتفل بالكابلي إنما نمثل كل السودانيين والعرب ، في واحدة من ارفع الأمسيات الفنية والثقافية ، الموسيقية الغنائية ، النادرة التي لا تنسى .

ثم صدح صوت الفنان السوداني ، العربي الكبير ، الإفريقي ، الإنساني ، وسط المئات من الحاضرين ، الذين قدموا ابلغ معاني سعادتهم ، وامتنانهم ، وتقديرهم، لهذا الفنان الأصيل ، الذي ارتقى بالغناء السوداني ، إلى آفاق عالية ، سامية ، وأوصله إلى المراتب الصافية ، من حيث اختيار أجمل الكلام ، ومن حيث عظمة الأداء ، وأيضا من حيث المردود الموشى ، بأرفع آيات الاحترام ، لفن الغناء والموسيقى ، ولدور ، المغني ، أو المؤدي ، أو المطرب ، في حياة الشعوب .

كانت الأمسية ، سودانية ، مصرية ، عربية ، نظمتها رابطة محرري الشؤون الخارجية ، بنقابة الصحفيين المصريين ، وكان الحضور ، شاملا ، لفئات راقية من المبدعين ، من كتاب ، وشعراء ، وفنانين ، وصحفيين ، وكذلك من دبلوماسيين ورجال أعمال ، وأساتذة جامعات ، وموسيقيين ، وقطاعات مختلفة ، من الجالية السودانية ، والعربية ، إضافة إلى الحضور المصري الكثيف والمشرف .

وقد تحدث الكثيرون في الأمسية ، مشيدين بالكابلي ، وتاريخه الخصيب ، في مجال الأغنية السودانية ، ودوره في إعطائها ، مقاما سامقا ، في سماء الأداء الموسيقي العربي ، وحضوره الفعال ، في ابرز محطات النهوض السوداني ، الوطني والقومي ، عبر حياته الحافلة بالانجاز ، ولعل ما قاله الناقد والشاعر السوداني المعروف (السر قدور) ، في الأمسية ، ما يعطي صورة واضحة ، عن عبد الكريم الكابلي ، فنانا، وشاعرا، وأكاديميا ، ودبلوماسيا ، ومثقفا كبيرا، لا تستطيع ، إلا أن تنصت إليه ، بكل جوارحك ، وحواسك .

ولم تخف شهادات المتحدثين ، ذلك الإعجاب ، المشوب بالاحترام الشديد ، لهذه الشخصية ، التي عرفت كيف توازن ، بين متناقضات حياتنا المحلية، والقطرية ، والقومية ، وان تحقق مشهدا راقيا ، من الإبداع ، أرضي كافة مستويات الشعب وخاصة الطبقة المثقفة ، وفي ذات الوقت ، صعد بأذواق الجماهير إلى منصته العالية ، وانتشلها من واقع التخلف ، والعادية ، والسطحية إلى مستويات الأغنية الأوبرالية ، الفخمة ، بصوته القوي ، ولغته المحكمة ، وأدائه المنضبط ، وابتكاراته العلمية ، التي أضفاها على السلم الموسيقي ، للأغنية السودانية التقليدية ، ناهيك عن قدرته الحوارية ، التي تشمخ بمنطقياته الميسرة، للفهم والإدراك . وكان حديثه في الأمسية لا يقل إبداعا ولا قدرة ولا ثراء عن نتاجه الفني والغنائي الموسيقي .

حقا إننا لفخورون بعد الكريم الكابلي .

١٩ تأخر وصول القصيدة ١٥ عامًا ولكنها وصلت يا صديقي علي ياسين

صديقي الصحفي والشاعر السوداني المبدع علي ياسين ، كان من أوائل من تعرفت عليهم في العاصمة المثلثة الخرطوم ، وكانت جريدة الإنقاذ الوطني التي كان يعمل في القسم الثقافي فيها ، هي أول صحيفة أزورها وأتعرف على رئيس تحريرها الأستاذ الصحفي موسى يعقوب كما سبق أن قلت .

كانت تقع في اقرب موقع من عملي في العمارات قبل أن ننجز المركز الثقافي في الخرطوم بحري ، وكنت لهذا أكثر الزيارات إليه ، وقد تعرفت على أروع الأصدقاء خلال هذه الزيارات .

وكوني شاعرا ، كنت في كل مكان وفي آية مدينة أو دولة ، أجد أن الاقتراب أولا من الشعراء والكتاب والفنانين ، والأقسام الثقافية في الصحف والمجلات ، أكثر انسجاما مع توجهاتي الثقافية الحقيقية ، ومن ثم تأتي الشؤون الصحفية والإعلامية . حيث التعرف على مختلف الكتاب في المجالات الأخرى كان يأتي طبيعيا جدا ، بعد أن أكون قد اتكأت على كتف شاعر ، أو أمسكت بيد قاص أو ناقد .

كنا كثيرا ما نتحدث عن الشعر والأدب ، ونقرأ القصائد ، ولقد نَشرتُ أول قصيدة لي في السودان في الإنقاذ الوطني ، وكانت بعنوان أعالي النيل بتشجيع من علي ياسين ، وبحفاوة من الكاتب الكبير ، المبدع والصديق العزيز اسحق احمد فضل الله ، الذي تناول ديواني (أربعون نهارا) في أكثر من أربع حلقات غاية في

الجمال ، وفي اكتشاف مواقع الشعرية فيها لاسيما وأنها كانت تتحدث عن مدينة الموصل وأيامنا فيها .

وعبر القسم الثقافي الذي يعمل فيه علي ياسين أيضا ، كتب الأستاذ الشاعر الأديب عبد الباسط سبدرات ، وكان حينها وزيرا للثقافة والإعلام ، أجمل التعليقات النقدية بلغته الشفافة العالية ، عن الكتاب ذاته الذي طبعته لي جامعة الخرطوم ، وكان عنوان مقالته (أربعون نهارا من الصندل) حيث أحال العنوان إلى فضاءات جديدة تشظت هي الأخرى إلى عوالم مغرقة في الجديد من اللغة وسحرها .

كان الشاعر علي ياسين يافعا حينذاك ، شابا مليئا بالحيوية والنشاط والعمل الدؤوب ، وكان يبني بهدوء تجربته الشعرية التي كثيرا ما تراصفت مع إطار تجربتي في استخدام التفعيلة أساسا لنمط الكتابة ، مع وضوح لا يمس النثرية أو المباشرة ، وغموض لا ينغلق على نفسه ويستعصي على القارئ ، والاهتمام بجماليات المكان وآثار الوقت والزمان ، وانتهاز التجربة اليومية الاستثنائية من كومة أحداث ووقائع عادية . ولذلك فان علي ياسين من الشعراء السودانيين الذين بنوا تجربتهم بعناية فائقة ونظرة متفحصة في بناء قصيدته ، حتى استطاع أن يؤسس مكانا لائقا في الشعر السوداني الحديث .

ظل علي ياسين قريبا مني ، وظللت قريبا منه ، القينا شعرا سوية في المحافل، والتقينا في الأمسيات والمهرجانات ، وكنا نحرص على اللقاء دائما حتى بعد مغادرتي السودان ، وبرغم مشاغله الكثيرة وأعماله المتوزعة في أكثر من مكان في الثقافة والإعلام ، إلا أنني رايته قبل أشهر ، وتواعدنا على لقاء آخر ، غير تلك التي نتواصل عبرها في الانترنيت ، ولقد فاجأني بقصيدة مهداة لي ، قال انه أرسلها بيد بعضهم إلي منذ حوالي خمسة عشر عاما ، حين انتهت مهمتي في السودان ولكنها لم تصلني إلا مؤخرا منه ، وهي ما زالت محملة بالندى والمحبة وكأنها كتبت اليوم ،

واحسب أن الزمن أضاف عليها الشوق والحنين والذكريات والأحداث ، وما زالت تحمل من هموم الإنسان العربي وأمته الشيء الكثير ، وأقول له كلنا يا صديقي مجهدون ، ومتعبون ، تتسرب من بين أيادينا الحياة ، ولا يبقى منها غير هذا الرماد .

ولكنني أقول له أيضا ، لقد قمنا بما ينبغي لنا أن نفعله ، في حدود رؤيتنا ورؤانا ، لم نجلس صامتين ، قلنا أيضا ما ينبغي لنا أن نقوله ، وإذا كان الشاعر محكوم عليه أن يبقى بعيدا ، فانه لشرف له أن ينظر ويتأمل ويكتب ، و(هو الذي رأى) على حد قول ملحمة كاكامش .

وهذه هي القصيدة التي تؤرخ للتعب والمحبة والزمن والجراح .

حبيسُ العُروبة

إلى أمجد محمد سعيد –علي ياسين

مُجْهَدٌ ، يا صديقي

مُجهَدٌ .. تترَنَّحُ قافيتي بينَ أسمالِها ..

تَتَساقَطُ أُغنِيَتي في الطريقِ

مُجْهَدٌ ، إذْ أُلَملِمُ إشلاءَ صوتي ، لأحشدهُ طُعمةً للحريقِ

و مِجَنّاً يُواثِبُ فجرَ الجُنونِ ، إذا ما تواتَرَ من كُلِّ فجٍّ عميقِ

يُفَدِّي صدورَ العَدُوِّ بِنَحْرِ الشَّقيقِ

مُجهّدٌ ، إذْ تُهاجِرُ فينا مصارِعُنا ، بينَ سِرٍّ دفينٍ ، وبوحٍ صفيقِ

فيُسعِفُنا الصمتُ ، ساعةَ لا تُسعِفُ الأُغنِياتُ..

ولا تَصْدُقُ الأُمنياتُ ..

و لا تستطيلُ يدي ، كي تُداعِبَ من ماءِ دجلةَ أوتارها

أو تُلاعِبَ في النخلةِ الموصِليَّةِ أوتارَها

أو تُعاتِبَ ، في حَزَنٍ ، كَربَلاءَ وأوزارها

أو تُصافِحَ في ليلِ بابلَ «عشتارها»

أو تَلُوذَ بأعطافِ حُلمٍ سحيقِ ..

*****

مُجهَدٌ .. يا صديقي..

فأثقالُ هذي العُروبةِ آخِرُ ما يترَجَّلُ عن كاهِلينا

و أوَّلُ ما يتَوَهَّجُ في شَفْرَتَي قاتِلَينا

و أعلى مساقِطِنا ، حينَ نَعلُو

و أدنى مرابِدِ ثأراتِنا ، حينَ نَسْلُو

و أرشَدُ سَوراتِ هذا الجُنونِ الرشيقِ

مُجْهَدٌ ، يا صَديقي ..

٢٠ البروفيسور عون الشريف قاسم
ذاكرة عربية

كثيرا ما كنت التقي بالراحل الكبير ، الأستاذ الدكتور العلامة عون الشريف قاسم ، في المنتديات الثقافية والفكرية ، والأمسيات الشعرية ، والمحاضرات الأكاديمية ، في الخرطوم أو أم درمان أو بحري ، التي كان يتألق فيها محاضرا أو مشاركا . كنت اقبل عليه هاشا باشا ، وأنا احتضنه في كل مرة ألقاه .

كان يذكرني بالكبار ممن تتلمذنا على أيديهم في جامعة بغداد ، من أمثال الدكتور جواد علي ، والدكتور مصطفى جواد ، والدكتور مهدي المخزومي ، والدكتور إبراهيم السامرائي ، والدكتورة عاتكة الخزرجي ، والدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، والدكتور عناد غزوان ، والدكتور فاضل السامرائي ، وغيرهم من عمالقة الأدب واللغة والنحو والصرف والتاريخ .

في منزله في حلفاية الملوك في بحري ، زرته أكثر من مرة ، كان بيته جميلا ، وأظن إن لم تخني الذاكرة ، انه كان في آخر صف البيوت حينذاك ، أو هكذا بدا لي ، قريبا من الأرض الخلاء ، المزينة بالأشجار والنبات ، كنت قد أبلغته أنني سأوصل إليه دعوة من وزارة الثقافة والإعلام ، لحضور إحدى الحلقات الدراسية التاريخية في بغداد .

بتواضعه الجم ، وخلقه الرفيع ، استضافني ، وببساطته المعهودة فيه ، رحب بي ترحيبا جميلا .

حين نظرت إلي صوره الفوتوغرافية المعلقة على جدران صالة الضيوف ،

وجدتها تعبر عن مراحل هامة من حياته ، مشيرة إلى التنوع الثر الذي عاشه ، والمناصب التي تقلدها .

قلت له : يبدو أن لكم في السياسة باع واضح ومعروف ، لا اعرف عنه الكثير، ضحك وقال : نحن في العالم الثالث ، كثيرا ما نُستقطب بموافقتنا ، وبرغبتنا، وأحيانا دون رغبتنا ، ونتحول أو نُزاح شيئا ما أحيانا ، من مواقع اختصاصنا الأكاديمي إلى مواقع بديلة ، مؤقتا ، نعتقد أننا نفيد فيها ، ثم إننا نخسر في الحالتين ، الأولى : إننا ننقطع نسبيا عن مسيرة تطورنا العلمي التقليدي التدريجي ، وثانيا : إننا نعرف أننا لن نستمر طويلا على حالنا الجديد ـ وأنا انقل هنا إطار الفكرة العامة ، حيث تخون الذاكرة نفسها إتيان النص الأصلي ـ وضحك ثانية ، ثم قال : الحياة تجربة ، وتراكم التجارب يولد النظريات والأفكار.

حدثني عن بغداد التي سيسافر إليها ، نوادر وأحداث وطرائف ، لا يمتلكها إلا الباحث الواسع الاطلاع ، كان يعتبرها رمزا من رموز تألق الدولة العربية في سياق تطورها ،

كان همه الرئيسي هو كيفية النهوض بالأمة العربية الإسلامية من جديد ، مع إيمانه بوجود الروح العظيمة فيهما ، والإمكانات المادية والبشرية ، وأيضا مع وجود التحديات الخطيرة التي تهدد كيانها في أكثر من موقع وثغر .

وكان يعتبر التواشج المصيري بين الأمتين العربية والإسلامية مصدر قوتهما معا ، دون استطاعة احد أن يفصلهما ، مثل الشكل والمحتوى ، في نظرية الفن والأدب .

وكان لا يطمئن قلبه كثيرا من أهداف الغرب الحالي ، مثلما الغرب الاستعماري الماضي ، مع إيمانه القوي بما قدمه بعض الغربيين في دول متباينة ، من مواقف ايجابية تجاه العرب والمسلمين عبر العصور ، ثم انه كان يعتبر الثقافة

العربية ملكًا للأمم كلها ، لكن على هذه الأمم كلها تعزيز مكانة العـرب والإسـلام الذي جاء به العرب ، دون التفريط فيها أو التعتيم عليها .

عـون الشـريف قاسـم ، علامـة مضـيئة في تـاريخ السـودان ، والعـرب ، والمسلمين ، وليس كثيرا عليه ، وعلى غيره من أقطاب الثقافة الإنسانية ، الاحتفـاء بهم ، والتذكير بإنجازاتهم ، والاستضاءة بتجاربهم وأفكارهم .

٢١ القاص السوداني عيسى الحلو
في مجموعته القصصية (أختبئُ .. لأبحث عنك)

منذ أن عرفته في أوائل التسعينات من القرن الماضي ، وأنا أقرأ للقاص السوداني المبدع عيسى الحلو ، حين أجد له شيئا جديدا على بعد الشقة بين مكانينا، على الأقل بالنسبة لي .

وظل عيسى الحلو دائما ، يبدو لي أديبا حقيقيا مهموما بالإبداع والفن والثقافة ، دون أن ندخل كثيرا في تفاصيل مشروعه الثقافي .

كنت ألتقي به لماما في الهيئة القومية للثقافة والفنون ، وكان حينها يرأس تحرير مجلة الخرطوم ، نتجاذب أطراف الحديث حول الثقافة والأدب ، وكنت أشعر انه يقرأ ويكتب أكثر مما يتكلم ، مثل صديقه الحميم الناقد مجذوب عيدروس ، ربما لذلك تراهما عملا سوية في أكثر من مكان !! .

كما أنني أتابع كتاباته الأدبية الصحفية والنقدية وحواراته مع أدباء آخرين ، فأجد جديته في الطرح ، وعمق أسئلته ، وطبيعة تعليقاته .

من جناح سوداني بسيط في معرض القاهرة الدولي للكتاب هذا العام ، اقتنيت عددا من الكتب السودانية ، وكان احدها مجموعة قصص قصيرة لعيسى الحلو بعنوان (أختبئ...لأبحث عنك) ، وقد لفت العنوان انتباهي مباشرة ، إذ شعرت أنه أقرب إلى عنوان مجموعة شعرية منه إلى عنوان مجموعة قصص قصيرة، تتضح فيه هوية (الأنا) ، لمجهول ، في مواجهة مجهول آخر ، إننا نبحث عن البطل ، أو الأبطال في هذه القصص . وقد فكرتُ قبل أن اقرأ ، أن هناك

احتمالا في أن يكون الاثنان شخصية واحدة ، وهذا اقرب إلى الشعرية منه إلى السردية الواضحة .

أبطال هذه القصص بشر مأزومون ، يعانون من ثقل الواقع ، أو الخيال المفترض ، على أنفسهم وحيواتهم ، كل واحد أو واحدة منهم ، يعيش غربته الداخلية الخاصة ، وعالمه المؤسطر الحائر ، المتأرجح بين الحقيقة والخيال ، يحاول أن يكتشف البعد الآخر المفقود منه ، الضائع ، الذي قد لا يكون بعيدا عنه بالضرورة ، اذ ربما يكون في داخله نفسه ، كانشطارٍ مَرَضيٍّ معصرن ، أو كانفصام غير مرئي خفي ، عوالم يرصدها المؤلف بعين فاحصة ، ويعبر عنها بدقة .

الكاتب عيسى الحلو يستخدم لغة بسيطة ، لكنها تؤدي المقاصد النفسية العميقة التي تتشكل في ثنايا عالمه . هذا العالم الذي قد تجد فيه بعض ملامح كافكوية أو بورخيسية ، ولكنها لغة تحسب للسياق حسابه حيث تتألق بالصور والاستعارات والانزياحات حين يكون ذلك ضروريا ، أو حين تصف الواقع المجرد كما هو بأشيائه وشخوصه ، ومكوناته العادية ، ولكنها في كل حال تظل قادرة على إثارة الدهشة والغرابة ، في هدوء واعتيادية ، كما تظل قادرة على منح عالم القصة ذلك الجو الذي يقترب من عوالم السر والسحر والخيال أحيانا ، وعوالم التصوف والتماهي الروحي مع العالم أحيانا أخرى .

يلعب الكاتب لعبة الغرابة نفسها مع الزمن ، والوقت ، حين يلغي (عبر الحالة القصصية لأبطاله) مفاهيم السياق الزمني العادي ، ليعطي لكل حالة زمانها الخاص الذي تتماهى معه ، داخل الزمن العام ، أو أزمان الآخر ، وبالتالي فانه يشطر الزمن الواحد إلى أزمنة عديدة تعيشها شخصياته المتعددة ، أو الشخصية الواحدة ، قد يلمها أحيانا ، وقد يتركها أحيانا أخرى عائمة حتى النهاية .

أما المكان في هذه القصص ، فهي إما أمكنة عامة غير مُعرَّفة ، يجري فيها

حدث إنساني قد يحدث في أي مكـان آخـر ، أو مكـان مخصـص واضـح المعـالم معروف بما يؤثثه من قيم وشخوص وتقاليد وثقافة ، وفي كلتا الحالتين فأن القاص يستفيد من المكان لتأطير أزمة البطل ، أو تغييب المكان لإضفاء بعـد شـامل عـن الأزمة التي يخوضها البطل .

تحفل قصص عيسى الحلو بثنائيات متناقضة تواجه بعضها الـبعض الآخـر ، منها ثنائية مواجهة النفس لذاتها ، وثنائية مواجهة النفس للعالم المحـيط ، وفي كـلا الحالين فان عيس الحلو يبدو متمرسا على الدخول في عـوالم الـنفس ، انـه يعـرف كيف يتعامل بدقة شديدة ، لتوضيح أبعـاد أزمـات أبطالـه ، ومشـكلاتهم النفسـية غالبا، بشكل شفاف وسريع ، وعلى دفعات أن صح التعبير ، وباسـتخدام لغـة غيـر معقدة أو بعيدة عن سياق الجو العام للقصة .

وثنائيات عديدة أخرى تحفل بها هذه القصص ، الوعي أمام غياب الـوعي ، العقل والجنون ، الحضور والغياب ، الكشف والإبهام ، الاختفاء والبحـث ، ومـا إلى ذلك .

وأخيرا فإنني في هذه العجالة أردت لفت النظر إلى عمل إبداعي هام ، لقاص وروائي سوداني مبدع ، استطاع الغـور في أعمـاق الـنفس الإنسـانية واسـتخلاص أزماتها ومشكلاتها الدفينة ، واكتشاف نوازعها ومطامحها ، دون أن يرمـي القـارئ في متاهات من الأطناب أو الوصف الزائد ، حتى نستطيع أن نضـع هـذه القصـص في مصاف قصص عالمية .

ولن يقلل من شأن الكتاب ما حفل به من أخطاء مطبعية غير قليلة ، ومن إخراج عادي جدا ، وربما يفكر الكاتب بطبعها من جديد في إحـدى العواصـم العربيـة مثـل القاهرة أو بيروت أو دمشق لتحقق انتشارها الأوسع المطلوب سودانيا وعربيا ، حيث سيتناولها نقاد متمرسون ويعطونها حقها من الدرس والتحليل .

٢٢ الروائي السوداني فيصل مصطفى بين القاهرة والخرطوم

الروائي وكاتب القصة القصيرة فيصل مصطفى ، واحد من المبدعين السودانيين المقيمين في القاهرة ، منذ سنوات عديدة ، بعد فترات قضاها في ليبيا واليمن والإمارات العربية المتحدة والسعودية ، وأخيرا استقر في مصر ، وهو أيضا يقضي من السنة أشهرا عديدة في بيته بالخرطوم .

أراه دائم الحضور والتواجد في الملتقيات والندوات والمهرجانات الثقافية في القاهرة ، ودائم الاستعداد للمشاركة الفعالة في الحوارات والنقاشات ، وكانت آخر مشاركاته في ملتقى القصة القصيرة قبل عدة أشهر ، ملقيا الأضواء على ما لا يعرفه البعض من الحاضرين عن الأدب والأديب السوداني ، والمبدعين السودانيين .

يقول الروائي والقاص فيصل مصطفى عن بداياته ومسيرته الأدبية : كثيراً ما يستهويني وصف مسيرتي ورصدها داخل إطار مقولة الصوفي الأعظم جلال الدين الرومي ، مع بعض التحويرات في الأزمنة والأمكنة والتعبير: «كنت فطيراً في الخرطوم ونضجت في صنعاء وأحترق الآن في القاهرة»، والاحتراق هنا كناية عن الصقل والاكتمال .

ويضيف : أنا أكتب منذ مطلع السبعينيات ، ومن أبرز أعمالي الروائية «الخفاء ورائعة النهار» ، و« حكيم وعطا وروضة يعبرون النيل » ، ومجموعة نصوص سردية بعنوان « شجرة هجليج » ، وستصدر لي قريباً مجموعة نصوص

سردية أخرى بعنوان « انشقاق » عن « الهيئة العامة لقصور الثقافة » ، وقيد الطبع مجموعتان قصصيتان ، الأولى بعنوان « الجليسان » ، والأخرى بعنوان « الفجوة »، وثمة ما يزيد عن عشرة كتب ، ما زالت رهينة قصاصات الصحف والمجلات.

وحول تجاربه في البلدان التي عاش فيها يقول فيصل مصطفى : تجربة اليمن هي الأطول ، والخرطوم لا تختلف كثيراً عن صنعاء ثقافياً في انغلاقها وعزلتها عن العواصم المركزية ، وفيها لم يتعد اسمي الأدبي تخوم اليمن ، حتى ظن بعض النقاد السودانيين أن فيصل مصطفى توقّف في منتصف الطريق!

وعن رؤيته للمشهد الثقافي في السودان يقول : يراوح في إطار محلي على رغم أنه يموج إبداعاً ،ويتوهج إشعاعاً ثقافياً . منذ الستينات وقبلها ، ظهر شعراء كبار أمثال محمد المهدي المجذوب وصلاح أحمد إبراهيم ومحمد عبد الحي ومحمد المكي إبراهيم والنور عثمان أبكر وكمال الجزولي وإلياس فتح الرحمن وعبد المنعم الكتيابي... في السرد ، إذا استثنينا الطيب صالح ، ثمة مبدعون كثيرون، وتحظى القصة والرواية بمعاوية نور وملكة الدار محمد والزبير على وإبراهيم إسحق وعيسى الحلو وعثمان علي نور ومحمد المهدي بُشرى ونبيل غالي ومبارك الصادق وجمال محجوب الذي يكتب بالإنكليزية ، وزينب بليل ونفيسة الشرقاوي وبُثينة خضر مكي وليلى أبو العلاء التي تكتب بالإنكليزية أيضاً.

ويضيف : أودّ الإشارة إلى مقال للروائي جمال الغيطاني بعنوان « الثقافة والسودان » كتبه عقب عودته من الخرطوم أخيراً جاء فيه: « ما يُدهشني التباعد الثقافي السوداني وانحسار التقارب الإعلامي الذي كان بين مصر والسودان ، لذلك أقدم مقترحات لنقل الأدب السوداني إلى دائرة الضوء وعكسه على خارطة الثقافة المصرية » ، وقال الغيطاني « أن السودانيين يعرفون أدق التفاصيل عن مصر بينما لا يعلم المصريون شيئاً عن السودان »، وهذا ما كافحت من أجله منذ حطت

رحالي في القاهرة أواخر عام ٢٠٠٥، لا سيما حينما شهدت بأم عيني عدم مشاركة السودان في « ملتقى الشعر العربي » في القاهرة في دورته الأولى عام ٢٠٠٧، وعندما اطلعت على قائمة المدعوين في مهرجان « الشعر العربي » في العام المقبل ولم أجد اسماً واحداً لشاعر سوداني يشارك مع أشقائه العرب ، علماً بأن السودان يكاد يكتظ بالشعراء المجيدين في الخرطوم ، وكثير منهم ينتشرون في المهاجر.

والروائي فيصل مصطفى كاتب حداثوي ، ولج إلى دائرة التجريب منذ بداياته ، محاولا كسر الأسلوب التقليدي الذي كان سائدا خلال نهاية النصف الأول من القرن الماضي ، متطلعا إلى أحداث الدهشة والإرباك ، على حد قوله ويضيف : في تجربتي هشمت السطر الأفقي ليصير راسيا ، وغابت الجمل الطويلة وحروف العطف . وغادرت الأسلوب الأرسطي للنص ، بداية ووسط ونهاية .

وما يزال فيصل مصطفى يداعب بأوتاره الدقيقة ، واهتمامه الجاد والموضوعي ، مختلف مجالات الإبداع من خلال المتابعة المستمرة ، والحضور المكثف ، وهو يستعد حاليا للعديد من المشاريع الأدبية ، انجازا واستعدادا . ويشغله كثيرا الشأن الثقافي السوداني وكيفية الوصول به إلى شتى بقاع العالم وبمختلف الوسائل والإمكانيات .

٢٣ كمال حسن علي

أعادني إلى السودان وحفزني لكتابة الملحمة السودانية

في سنوات التسعينات من القرن الماضي ، كانت صحيفة المسيرة الطلابية الشبابية التي تصدر في الخرطوم حينئذ ، واحدة من المنابر الإعلامية السودانية التي يحتشد فيها الشباب من الطلبة الذين يمتلئون بالحماسة والحيوية ، وكانت الصحيفة تعكس بشكل واضح تلك الحماسة والحيوية .

كنت التقيت هناك شبابا يتطلعون إلى بناء التجربة الجديدة المطلة على سماء السودان ، وكان هناك الصديق القديم كمال حسن علي الذي طالما استقبلني بطيبته ووجهه الباسم المرحب ، مع صحبه من الشباب .

والحق أقول إنني كنت احترم ، وما زلت ، تطلعات الشباب ، من أي تيار كانوا ، ومن أية أيديولوجية انطلقوا ، وعن أي موقف فكري صدرت آراؤهم في الثقافة والحياة والإبداع ، ذلك أن الاختلاف سنة حياتية بديهية ، ومن هذا الاختلاف تتولد الأفكار الجديدة ، في بناء المجتمعات والشعوب والدول ، وتتطور إلى الأفضل .

كانت صحيفة المسيرة ، وفي مقدمة المسؤولين فيها الصديق كمال حسن علي ، شأنها شأن بقية الصحف حينذاك ، تنشر الأخبار والتقارير والتعليقات بكثافة عن أوضاع العراق المأساوية تحت الحصار الجائر المفروض عليه ، من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفائها الغربيين خاصة .

وكان الإعلام العراقي يزودنا في المستشاريات الصحفية في الخارج يوميا ،

بنصوص المقالات والخطب والمراسلات التي تفضح ادعاءات الغرب وأمريكا ضد العراق ، وكنا بدورنا ننقل إلى الصحافة في البلدان المختلفة آخر الأنباء والمواد الصحفية والتقارير ونصوص مقابلات المسئولين ، ولم تكن تقنيات الإعلام والصحافة ، قد وصلت إلى ما هي عليه الآن .

كانت مؤسسة الإنتاج الإعلامي على ما أتذكر هي التي تصدر صحيفة المسيرة ، ولم يكن نشاطها يقتصر على ذلك فقط ، إنما كانت تقيم المهرجانات الثقافية والأدبية ، وتصدر المطبوعات ، وتقيم الندوات والأمسيات الفنية وتسير القافل الثقافية إلى إنحاء مختلفة من البلاد ، ما يزال لدي شريط من أناشيد وأغان ذات مذاق خاص .

كان كمال حينها شابا رشيقا يتحرك هنا وهناك ، ويضفي على الأمكنة جوا جميلا من الرعاية والمسؤولية في الوقت ذاته ، ولا يتردد في اتخاذ القرارات الهامة ، وإعطاء التوجيهات السديدة .

وكان يحتفي بكل الزائرين من أي جهة كانوا ، حتى أنني كنت أحيانا التقي في احتفالات الجريدة ، بدبلوماسيين من العرب والأجانب لم تكن لدينا علاقات مع دولهم .

انقطعت أخباره عني بعد مغادرتي السودان ، وحين زرت الخرطوم قبل احتلال العراق بشهر واحد برفقة الشعراء عبد الرزاق عبد الواحد وعبد المطلب محمود وساجدة الموسوي لإقامة أمسيات شعرية ، لم أره أيضا .

وحين استقر بي المقام في مصر منذ ٢٠٠٥ ، كنت أهاتف أحيانا ممن أهاتفهم في السودان ، الأستاذ الصديق الأديب الوزير عبد الباسط سبدرات ، فقال لي مرة أليس كمال حسن علي صديقك ، قلت بلى ، فقال لماذا لا تزوره وهو معك في القاهرة ، مديرا لمكتب الحزب الوطني السوداني ، فسعدت بالخبر أيما سعادة،

واتصلت به وحضرت إلى مكتبه مرات كثيرة ، وشاركت في أكثر من مناسبة ثقافية سودانية في قاعة المكتب ، أو المناسبات التي يقيمها في المنتديات القاهرية الأخرى ، وما زلت .

واشهد أن المكتب ظل مكانا لكل السودانيين في مصر العربية ، بعيدا عن الفئوية أو الحزبية أو المناطقية ، وكنت أحس في أحاديث الأخ كمال للسودانيين في مصر ، انه يود أن يساند الجميع وبعمل مع الجميع ، ويشركهم في التخطيط وفي تنفيذ النشاطات المختلفة التي يقوم بها المكتب ولم أجد أحدا إلا وكان يتحدث عنه بكل الحب والاحترام .

اما علاقته مع الوسط المصري فكانت هي الأخرى مثالا للأخوة العميقة التي تربط شعبي وادي النيل . صادقة وصميمية ، واضحة وصريحة ، وكان جل همه هو كيفية الارتقاء بهذه العلاقات إلى فضاءات أوسع ، والى مديات أكثر رحابة واتساع .

حين دعاني إلى الخرطوم ـ دعوته الأولى ـ لإقامة أمسيات شعرية باستضافة الأخوة في مؤسسة الإنتاج الإعلامي ، شعرت بسعادة بالغة ، فقد مضى وقت طويل ولم أرها ، أكثر من أربع سنوات ، وحين قال لي هل ستكتب شيئا جديدا ، فكأنه فجر في نفسي مكامن الإبداع وينابيع الشعر ، وبدأت اكتب قبل السفر ، وفي إثنائه وأنا في الفندق أثناء الراحة ، وبعد عودتي إلى القاهرة ، حتى أنجزت كتابي (عزف سوداني بأوتار عراقية) وهي قصيدة ملحمية تدفقت بألوان من الموضوعات السودانية العراقية المتشابكة ، وكنت انتقل من معنى إلى آخر ، ومن وزن شعري إلى آخر، بعفوية وانسيابية ، حتى اكتملت فوجدت من الإنصاف أن اهديها إليه وتسجيلها باسمه .

وله معي مواقف كثيرة ، تنم عن طبيعته الشخصية السمحاء ، وعن تمثله

الأصبل للقيم السودانية والعربية الخالصة .

وكان وما يزال يسهل لي السفر إلى الخرطوم كلما وددت ذلك . وظل يقول لي ستجدني حين تطلبني ، ولكنني امتثالا للنص العربي القديم اهمس لنفسي : زرغبا تزدد حبا ، والحقيقة انه أعادني إلى السودان مرة ثانية ، في فترة تواصل جديدة، وحيث يتعمق وجودي السوداني ، مواطنا هذه المرة .

وحين يتفقدني أقول له : أنا جيد ، أما أنت فلقد بلغتَ مني عذرا .

مجذوب عيدروس

٢٤

ظل سوداني يتسع لكل الشموس

سنوات طويلة عريضة مرت من عمري ، وأنا اعرف مجذوب عيد روس ، الإنسان الدمث الأخلاق ، الهادئ الطبع ، الرزين التصرف ، الكاتب الناقد العربي السوداني المهم ، الواسع الاطلاع على الثقافة العربية عموما ، والسودانية خصوصا، ناهيك عن خزين مقدر في ذاكرته من الثقافة والمعرفة الإنسانية .

وأنا لا ادري في الواقع ، متى ابتدأت علاقتي بمجذوب ، سوى أنها ولدت هكذا طبيعية ، مثلما تولد الأعشاب على الروابي ، أو النجوم في غفلة عن الوقت ، أو الأصداف على شواطئ الأنهار ، مثلما يكتشف الإنسان صدفة ، انه عربي أو تركي ، ابيض أو اسمر ، مسلم أو مسيحي .

وحين استحث ذاكرتي ، استجلابا لمشهد أول جلسة معه ، أو احتساء أول قدح شاي في رفقته ، أو الحديث عن أول قضية أدبية أو فكرية بيننا ، فان الذاكرة لا تستجيب لي ، وكأنها تستغرب مثل هذا التداعي الغارق في حزن غير مرئي إلى ماض تولى .

وحين أتحدث عنه ، فإنني في الواقع لا أريد أن أصفه مثلا بالصديق ، أو الأخ ، أو الشقيق ، أو غير ذلك ! لأنه لدي اكبر من كل هذه الصفات ، رغم أننا – هو وأنا – لا نعبر عن ذلك ، إلا بأقل قدر من العلنية المتبادلة ، وكأن من غير المناسب أن نعلن عن بدهيات ليس لإعلانها آية ضرورة .

ورغم ذلك ، فان أوقاتا طويلة تمر وأنا لا التقي به ، أو أراه ، وحين نلتقي

نكون كأننا كنا قد سهرنا ليلة أمس ، أو كأننا قد تفارقنا منذ سويعات ، وهو كما يعرف الجميع ، برغم ابتسامته الأزلية المتأرجحة بين العفوية المطلقة ، وبين ما يبدو وراءها من مسحة استغراق في ذاكرة بعيدة ، لا يدفع عاطفته للظهور إلى السطح ، إلا بقدر محسوب ، وكأني بالبعض يأخذ عليه حيادية تعبير غير مقصودة، أو تكميما لمشاعر طيبة ، ومودة حميمة هي في الحقيقة أوسع مما يبين على قسمات وجهه .

لا شك أنني تعرفت عليه في بغداد ، من خلال واحد من المهرجانات الأدبية والثقافية ، أو ربما في البصرة ، أو الموصل ، حيث كان وجود أي وفد سوداني لا يكتمل إلا بوجود مجذوب عيدروس .

ولم يأت يوما ، إلا وكان مشاركا فعالا في جلسات النقد ، والحوارات الثقافية والإبداعية . وكان همه الواضح الجاد ، وما بعد الجاد أحيانا ، أو الميتا جاد على لغة النقاد ! هو تواجده وحضوره الثقافي المطلوب سودانيا ، وعربيا .

وكثيرا ما كنت أرى أن تواضعه الجم ، وزهده في الإشارة إلى نفسه ، وابتعاده عن الأضواء الغزيرة ، في مثل تلك المهرجانات والملتقيات الثقافية ، يحرمه من حق طبيعي في تناول تجربته الأدبية النقدية ، وانه أيضا يَحْرِم الإبداع السوداني من بعض فرص التنوير ، وان كانت هذه عموما ، هي صفة تمثل زهدا سودانيا معروفا، إلا أنني دائما ما كنت أحاول أن أشير إليها لدى بعض من الأصدقاء والمعارف من المبدعين السودانيين ، وكنت اضرب المثل بالعديد من الأدباء العرب ، الذين يعرفون كيف يوصلون إبداعاتهم ونتاجاتهم ، بمختلف الوسائل المشروعة ، دون المساس بوضعهم الخاص ، حيث هدف الكاتب أولا وأخيرا أن يوصل صوته إلى الآخر . وكنت اعرف أديبا عربيا لا يدع مكتبة في العالم إلا ويرسل إليها كتبه الجديدة ، حتى مكتبة الكونغرس الأمريكي ، وإذا كان البعض ينتقد هذه

التحركات ، فإنها بالمقابل جعلت هذا الأديب مدروسا بالكثير من أطروحات الماجستير والدكتوراه في الخارج .

ورغم ذلك فأن مجذوب عيدروس ، صوت نقدي سوداني معروف جدا ، على نطاق واسع ، وتحمل مسؤوليات عديدة في التعريف بهذا الأدب ، وان كان ذلك يوقعه أحيانا في موضع النقد والتجريح ، لأنه لم يشر إلى هذا الكاتب أو ذاك ، فيما ينجزه من استشارات نقدية أو نتاجات مكتوبة ، ومن الذي يستطيع أن يلم بكل الأشياء ؟ والكمال لله وحده .

وفي الخرطوم التي ظللت فيها خمس سنوات ، وحتى بعد افتتاحنا المركز الثقافي العراقي ، لم أر مجذوب إلا مرات عديدة ، في مناسبات أدبية ، وأمسيات ثقافية ، لا تتناسب مع طول المدة التي قضيتها في السودان ، ولا مع تقارب الاهتمامات بيننا ، حتى إنني كنت أقول له أحيانا ، إنني كنت أراك في بغداد أكثر مما أراك في الخرطوم ! وما زلت أوبخ نفسي على أنني لم التق به كثيرا ، كما لم التق بالكثير من المبدعين السودانيين الذين أحب كتاباتهم عن بعد ، ويا ليت الزمان يعود يوما لأخبره بما فعل المشيب .

لقد قدم مجذوب عيدروس الكثير للأدب والثقافة السودانية ، وأرَّخ لجوانب منها فنيا ونقديا وتاريخيا ، بتواضع كبير ، وصمت عميق ، ومحبة فائقة لوطنه وأمته وشعبه وأصدقائه المبدعين ، دون مِنَّةٍ ، ولكنني أتساءل هنا ، إلا يمكن أن يتناول طالب دكتوراه أو ماجستير ، أعمال وكتابات مجذوب عيدروس في أقسام الأدب بكليات الآداب بالجامعات السودانية ، ومن الذي سيبدأ ويبادر إلى تناول ما أبدعه هذا الكاتب الحقيقي ، منذ أكثر من أربعين عاما ، ومن الذي سيضع وردة على صدره النحيف ، بعد أن زرع في حديقة الأدب السوداني أكثر من حقل كاردينيا .

محمد عبد الله طه

٢٥

يبني بيتَهُ ويغفو في البَرِّيَّة

ما زلتَ في ذاكرتي حاضرا ، كأنك احد شواخصِ العمر الأخضر الذي أنسفح على بساط الخرطوم .

أوشكتُ أن أناديكَ : يا أبي ، لولا مسحة من خجل وحياء ، ظلت تلازمني حتى وأنا اعبر الستين .

أسكنتني وأهلي ، بيتك العامر سنوات طويلة ، حتى أصبحنا جزءا من العائلة، في أفراحها وأتراحها ، وآمالها وإخفاقاتها ، وكنتَ وأهل بيتك بالمقابل العفوي الطبيعي ، تتحملون عنا بعض ما يصيبنا من متاعب الغربة والحياة ، وما يصيبنا من سأم وملل ، وما يواجهنا من تعب وإرهاق .

أسأل عنك الآن فيقال : انه موجود ، لكنه ذهب بعيدا بعيدا ، عن المكان ، وعن الزمان ، غادر الأصحاب والأهل والخلان ، وسرى وحيدا بين أعشاب حدائق الذات ، طائرا في سماوات الداخل ، مهاجرا هجرة بنفسجية بين تخوم الرؤى والأفكار .

حين جاءني صوتكَ قبل سنوات عبْر الأثير من آخر الدنيا ، عَرفْتَني ، وتذكرتني ، صوتكَ حارٌ مباشر قوي ، سألتني ، وقبل أن أجيبكَ دفعتَ قاربكَ القصبيَّ في التيار ثانية ، وغبتَ .

كان عشب الحديقة ناعما ، حيث كنا نسهر بين أريجها ، اخضر زاهيا ، مرتبا، والأزهار المتنوعة قد ملئت أرجاءها من كل صنف ونوع ، والمصابيح التي تضيء

أركانها وزواياها بين ابيض واصفر ، تشكل لوحة مرسومة بالضوء والظلال ، وأنت تحدثني عن مفاهيمك الحاسمة في الحياة ، والسبل المختلفة التي قطعتها ، والتجارب التي مررت فيها .

كان الصدق والإيمان واضحين في كلماتك وحروفك ، والثقة راسخة فيها ، ورغم ذلك كنت تقول : كان يمكن أن أعالج القضية الفلانية بشكل أفضل ، أو أن ارتب الموضوع العلاني بصورة أجمل .

كنتُ أنصت لهذا الجبل الذي بدأت سيول الزمن تأكل من كاهليه ، والذي عرَّف الأشياء تعريفا موضوعيا ، واقعيا ، يتوافق مع الحياة اليومية المباشرة التي يعيشها ، دخل غمار العمل ، وبالعمل فقط اجتاز عقبات العيش ، واستطاع أن يبني لنفسه مملكته الخاصة به ، وكان السودان حينئذ ينهض نهضة استقلاله ، ويشق طريق تقدمه جيلا إثر جيل .

ورغم كل تلك القوة البادية عليكَ ، والصرامة التي فرضتَها على سلوك الجميع ، ومنهم أنا ، كنتَ في لحظة أحّنُّ من طفل وديع ، حين غادر الحياة بشكل مفاجئ ولدكَ البكر الأول ، إثر نوبة قلبية ما كان احد يحسب حسابها ، كانت دموعك تنهمر مثل شلال ، وكنت لا تعرف ماذا تقول ، وكنت لا تعرف كيف تبكي ، ولا تعرف كيف تهدأ ، حتى عادت شكيمتك مثل ما كانت ، لكنها هذه المرة مجروحة جرحا بالغا لن يندمل أبدا .

رأيتك النموذج الصحيح للإنسان السوداني الذي لا يدع شيئا إلا ويتقنه ، ولا تفوته أدق ملاحظة إلا ويبديها ويعالجها ، وهو يتابع شؤون الحياة أو العائلة أو البيت ، مواعيدك لا اضبط منها ، وقراراتك مدروسة لا مجال للتراجع عنها ، ذلك أنها تابعت التفاصيل المختلفة ومن النواحي كلها .

وإذ ظل جهدك متواصلا في بناء مستقبل أبنائك واحدا واحدا ، بنين وبنات ،

فانك لم تتدخل في أي قرار اتخذوه ، كنت تشرح لهم المواضيع ، وتعطيهم الاحتمالات ، وتصور لهم المشاهد ، ولكنك لم تقرر بالنيابة عن احد منهم فيما يخص حياته .

عبرت السبعين أو أكثر كثيرا ، والبطّارية المختبئة بين قلبكَ وجلد صدرك ما زالت تنظم نبضات فؤادك المجهد ، وأنا أنتظر أن أراك يوما بعد يوم ، لتمنحني قوة أخرى ، قريبا من شواطئ النيل ، لتحدثني ثانية عن تقلبات الفصول ، وتبدلات الأحوال ، وعن رحلة سندبادية تعود منها بقصص جديدة ، وأمل جديد.

٢٦ محمد مفتاح الفيتوري عربيًا

قرأت مؤخرا مقالة حزينة ، فيها شيء من عتب ، للكاتب عبد الله الحامدي ، لست اذكر في اية يومية ، مـن الصـحف العربيـة ، ، يشـير فيهـا إلى معانـاة الشـاعر العربي الكبير ، محمد الفيتـوري ، مـن المـرض الملـم بـه ، وان الإعـلام الثقـافي العربي قلما يذكره ، وهو في محنة المرض والكآبة والعزلة .

وللحامدي الحق فيما قاله ، فـالفيتوري ، قامـة شـعرية أصـيلة ذات امتـداد سوداني ، عربي ، إفريقي ، وإنساني ، وما أنجزه يعد صورة خاصة تمثله دون غيره ، وان صوته ظل متفردا لا يشبه أحدا من مجايليه .

والحق أن مصر احتفلت العام الماضي بالفيتوري ، احتفـالا لائقـا وجمـيلا ، وأحاطه الوسط الثقافي المصري والعربي الموجود في القاهرة ، بكثيـر مـن الحـب والمودة والتقدير ، واستذكر صورا من الإبـداع الشـعري الخـلاق ، الـذي أنجـزه طيلة السنوات الماضية ، من عمره المديد أن شاء الله ، ومن عمر نتاجه الثر، الذي طبع مساحة مضيئة ، من مجمل المنجز الشعري العربي ، خلال قـرن مـن الزمـان تقريبا .

لقد سجل الفيتوري ، شهادته على عصره ، بشعره الصارم النـاري ، وأصـبح احد رموز الشعر العربـي ، والإفريقـي ، والعـالمي المقـاوم ، وكانـت الجمـاهير العربية في وطننا العربي ، تتغنى بقصائده من أقصـى المحـيط إلى الخلـيج ، فمـن منا، لا يذكر إشعاره العروبية الملتزمة ، ومن منا لا يذكر صرخة إفريقيا المدويـة ،

التي أطلقتها حنجرته السمراء الباسلة ، في القرن الماضي ، والتي أصبحت هي ، وغيرها من قصائده ، أناشيد للحرية والنضال والمقاومة والكفاح ، ليس في إفريقيا وحدها ، وإنما في كل أرجاء العالم :

يا أخي ، في الشرق ، في كل سكن
يا أخي في الأرض ، في كل وطن
أنا ادعوك.... فهل تعرفني
يا أخاً اعرفه رغم المحن
إنني مزقت أكفان الدجى
إنني هدمت جدران الزمن

في تلك الأمسية الاحتفالية بالفيتوري ، حين كنا ننصت ، مع الشاعر نفسه ، في إحدى قاعات المجلس الأعلى للثقافة المصري ، إلى إحدى قصائده المسجلة صوتيا في بيروت ، كانت شفتا الفيتوري ترتجفان ، و تتحركان ، كأنهما ترددان بهمس ، مقاطع القصيدة ، فيما كانت دمعات ، تنزل من عينيه على خديه الأسمرين، اللذين بدا الزمن ، كما لو انه حفر فيهما عميقا ، فيما كان صوته المسجل المدوي يهز أركان القاعة ، ويمسك بأفئدة المنصتين الخاشعين ، ويسيل الدموع من مآقيهم .

لجنة الشعر بالمجلس الأعلى ، اختارت الشاعر محمد مفتاح الفيتوري ، ليكون زهرة ربيع الشعراء ، ذاك العام ، وقد أشاد الشاعر الكبير، احمد عبد

المعطي حجازي رئيس اللجنة ، بالشاعر الفيتوري ، قائلا :

انه يمتلك تاريخا ، وامتدادا إبداعيا ، لا يعترف بقوانين الرتابة ، وأقفاص الكون ، مشيرا إلى أنه اشتهر بقصائد المنفى ، التي اتسمت بالكلمات الإبداعية الحادة ، لافتا إلى أن قصائده ، وما بها من تصادم وعناد ، تشكل إيقاعا يكاد يكون منتظما ، بسبب الجمرة الإفريقية فى دم الفيتورى ، التي مازالت متقدة ، تلتهم عواطفه وتثور معها أحاسيسه ، وأوضح الشاعر حجازي ، أن الذى كان يغذى تلك الجمرة الزنجية لدى الشاعر، لهيب من الدم العربي الصحراوي المكهرب بقضايا أمته العربية .

إما الشاعر فاروق شوشة ، فقد حيا الانجازات الكبيرة ، التي أبدعها الفيتورى فى الحركة الشعرية العربية ، مشيرا إلى أن دواوينه الشعرية تقسم حياته إلى ثلاث مراحل ، حيث جاءت الدواوين الأولى ، لتعكس علاقة الشاعر محمد الفيتوري بالقارة السمراء «أفريقيا» من خلال أغاني أفريقيا ، وديوان (عاشق من أفريقيا) ، (واذكريني أفريقيا) و (سقوط دبشليم) . ثم جاءت مرحلة التوهج الشعري ، وتفاعلها مع الهموم العربية ، والتي واكبت عصر الشعراء من ذوي القامة الشعرية الكبيرة ، من أمثال أمين نخلة ، والأخطل الصغير ، وسعيد عقل وقدم آنذاك عددا من الدواوين منها : (البطل والثورة) و (المشنقة) و (ابتسمي حتى تمر الخيل) . أما المرحلة الشعرية الثالثة للفيتوري فقد جاءت مع فترة حلمه الشعري.

نعم، لقد كان الفيتوري ، صوتاً عربياً أفريقياً ، عالياً ، دافع من خلاله عن طموحات الشعوب، وتطلعها للتخلص من نير الاستعمار والعبودية.

وإذا كان المجلس الأعلى للثقافة في مصر، ولجنته الشعرية ، قد أسبغت عليه كل صفات الإبداع ، وطوقت جيده بأزهار التقدير، فان اتحاد كتاب مصر ، وفي

مناسبة أخرى هي افتتاح مقره الجديد ، داخل قلعة صلاح الدين الأثرية بالقاهرة ، منح الشاعر الفيتوري جائزة نجيب محفوظ ، للكاتب العربي ، وقال أحمد درويش الأستاذ بجامعة القاهرة ، في كلمة لجنة التحكيم :

أن شعر الفيتوري ، ترك بصمة تؤكد ريادته ، فهو نسيج وحده في الشعر العربي .. هو هو، لا يقلد أحدا ، ويصعب أن يقلده أحد .

حين صعد الفيتوري على منصة الإلقاء ، أوائل السبعينيات في مهرجان أبي تمام بالموصل ، كنا آنذاك شبابا ، نخطو على سلم الأدب والشعر خطواتنا الأولى، وكان الفيتوري ومن معه من الشعراء الكبار ، قد أوصلوا رسالتهم إلينا : أن الشعر العظيم هو الشعر المتميز الخاص ، الذي لا يشبه أية كتابة أخرى ، وان الشاعر رائد أهله ، يفتح لهم آفاق الحياة واللغة ، واستكناه التجربة.

الفيتوري الذي تجاوز الثمانين عاما ، سيظل علامة منيرة للإبداع السوداني والعربي والإفريقي ، وكأنّي به يسير على حافة النيل وحيدا ، يردد مع نفسه:

أمس جئتَ غريباً

وأمس مضيتَ غريباً

وها أنْتَ ذا حيثما أنتَ

تأتي غريباً

وتمضي غريباً

تُحدِّق فيك وجوه الدُّخَانِ

وتدنو قليلاً

وتنأى قليلاً

وتهوى البروق عليك

وتجمد في فجوات القناع يداك

وتسأل طاحونةُ الرِّيح عَنك

كأنك لم تكُ يوماً هناك

كأن لم تكُنْ قطُّ يوماً هنالك

اصدر الفيتوري الكثير من الدواوين الشعرية ، والكتب الأدبية والسياسية والثقافية العامة ، وكان نشاطه الإبداعي مشهرا ومتدفقا وحاضرا ، في الزمان والمكان العربي والدولي ، وإذا كانت مصر قد احتفت به ، تحت راية الاتحاد العام للأدباء والكتَّاب العرب ، وبحضور رؤساء الاتحادات العربية ، فان ذلك بحد ذاته يشير إلى احتفاء الأمة العربية جمعاء ، بالفيتوري ، الشاعر ، والإنسان ، والمناضل . وسيبقى ما قدمه الفيتوري شهادة ناصعة ، للأدب المسئول الذي سيخلده عبر الأزمان . تحية للفيتوري ، وأملا له بالشفاء الناجز .

٢٧ في غياب الفنان الكبير محمد وردي

من المؤسف حقا إنني لم التق شخصيا ، بالفنان السوداني الكبير الراحل محمد عثمان وردي خلال إقامتي في السودان ، في تسعينات القرن الماضي ، رغم مكوثي بها حوالي خمس سنوات ، ورغم لقاءاتي مع العشرات من الأخوة الفنانين والأدباء والمثقفين والصحفيين والباحثين وغيرهم ، لأنه ببساطة لم يكن موجودا حينها في الخرطوم ، غير أنني وجدته حاضرا في كل بيت ومقهى وحديقة وناد وعرس واحتفال في العاصمة المثلثة ، وجدت الشيوخ والشباب والنساء والفتيان يرددون أغانيه الجميلة ، بحب كبير وبتعاطف نادر ، وباتساع دائرة معجبيه في كل بقاع السودان من أقصاه إلى أقصاه .

كما لم يغب محمد عثمان وردي الفنان المتميز ، عن أي نقاش يتناول جذور الأغنية السودانية وتطورها ، سواء في المنتديات الفنية الموسيقية الغنائية ، أو خلال المحاضرات والأمسيات الثقافية التي كانت تتناول جانبا من أهم جوانب الإرث السوداني الفني العريق ، إلا وهو ينابيع الموسيقى والغناء وابرز من ساهم في نقلها تلك النقلات النوعية الفريدة ، وكذلك في السجالات والحوارات الواسعة النطاق التي يدبجها العديد من النقاد السودانيون المتخصصون بالأغنية والألحان السودانية الخاصة على صفحات المجلات والصحف السودانية ، أو خلال الندوات واللقاءات والبرامج والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية ، متناولين أدق التفاصيل ، ومشيرين إلى كل نأمة وذكرى ، وموقف وحديث .

ولعل من النقاط الهامة والحيوية والجوهرية ، في حياة ومسيرة الفنان الكبير محمد وردي ونتاجه الفني ، انه لم يغب عن البعد السياسي والوطني والقومي في تقديمه نفسه للجمهور السوداني ، وللعربي والإنساني و الإفريقي خلال أكثر من ستين عاما من التواصل الفني مع شعبه ومواطنيه ، وبغض النظر عن هويته السياسية المحددة ، فقد عرف كيف يكون قريبا من هموم المواطنين والناس والشأن العام المحيط ببلده وقومه وأمته ، وعرف كيف يجعل من أغنيته موقفا في الحاضر والمستقبل ، وان يسجل عبرها تاريخا وطنيا لن ينساه احد من المواطنين في السودان .

إضافة إلى ذلك البعد الفكري والسياسي فانه استطاع أن يستخدم وسائل فنية مختلفة للتعبير عن قطاعات متعددة من أبناء الشعب السوداني ، وخاصة الوسط النوبي الذي يمتد إلى ما يتجاوز حدود السودان إلى مصر وغيرها ليحقق بذلك حضورا إفريقيا أوسع يشير بعض النقاد إلى امتداده إلى ارتيريا واثيوبيا خاصة .

كل ذلك ناهيك عن الأصالة الخاصة الذاتية ، والنبوغ الفني المتفرد الذي تميز به ، وإحاطته بمجال إبداعه إحاطة عميقة كانت سببا إضافيا وأصيلا لحب الشعب السوداني له ، هذا الحب الكبير .

أن أجواء الحزن العميق والأسى الغامر التي امتدت على كل أنحاء السودان بفقده ، والألم الحقيقي الذي أصاب القلوب بخلو الساحة الفنية من فنان كبير بحجم محمد وردي ، ليعبر بشكل ساطع عن الوفاء الغامر الذي أبداه الشعب السوداني بخسارته ورحيله ، غير انه لم يتوان أن يكرمه في حياته الحافلة التي اقتربت من الثمانين عاما فحصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة الخرطوم عام ٢٠٠٥ وظل محل تقدير وحفاوة يستحقها طيلة حياته الزاخرة .

٢٨ الكاتب الصحفي محيي الدين تيتاوي في كتابه (حصار السودان)

هو حصاد عمر ، وحصاد جهد ، وحصاد معاناة ، تلتمع من خلاله عين الصحفي المتابع لشؤون وطنه وشعبه ، يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ، وشهرا بعد شهر .

ذلك هو كتاب (حصار السودان) لمؤلفه الصحفي الأستاذ الدكتور محي الدين تيتاوي رئيس الاتحاد العام للصحفيين السودانيين ، والأستاذ الإعلامي بالجامعات السودانية ، وصاحب العديد من المؤلفات الإعلامية الأخرى ، مثل الإخراج الصحفي ، والنشر الإلكتروني .

والكتاب الذي بين أيدينا هو ملاحقة نوعية للكثير من الأفعال والإجراءات والمواقف العامة والسياسات والأجندات التي شعر الكاتب من خلالها أن السودان مستهدف في كيانه وشعبه وثرواته وحتى استقلاله .

أكثر من مئتي مقالة كتبها الصحفي محي الدين تيتاوي في ظروف مختلفة ، وفي شؤون مختلفة من الحياة والسياسة والثقافة والاجتماع ، إلا أنها جميعا تصب في النهاية في مجرى واحد ، هو كشف التيارات التي تحاول زحزحة امن واستقرار السودان .

يقول الإعلامي المعروف البروفيسور علي محمد شمو في كلمته التصديرية للكتاب ، انه أهميته تكمن في عنوانه ، يقصد ما ينضوي تحت العنوان من موضوعات ذات علاقة ، ذلك انه سفر توثيقي حوى مجموعة المقالات التي

كتبها المؤلف على مدى ستة وعشرين عاما ، أي منذ العام ١٩٨٣ ، وهو العام الذي أعلن فيه الرئيس الراحل جعفر نميري قوانين الشريعة الإسلامية . ويضيف أن عملية الحصار التي رصدها الكاتب لم تقتصر على دول الغرب ، بل تعدته إلى مؤسسات دولية .

ويعتقد شمو أن من يقرأ الكتاب يدرك تماما كيف أن السودان قد اجتاز كل الظروف العصيبة .

أما المؤلف فانه يقول أن قضية السودان هي قضية كل العرب والمسلمين ، المستهدفين من الغرب الصليبي الصهيوني الاستعماري ، وهو من خلال ما تضمنه الكتاب من معلومات وتعليقات وملاحظات وتعقيبات ، يفضح الكثير من أهداف هذا الغرب المعادي في اغلب الحالات ، ومؤسساته العاملة في أنحاء العالم تحت غطاء العمل الدولي .

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة فصول ، الأول السياسة السودانية ، والثاني المقالات الدولية ، والثالث موضوعات متنوعة .

يتميز أسلوب الأستاذ تيتاوي في مقالاته هذه ، بالوضوح والبساطة والدخول مباشرة إلى الموضوع ، مقتصدا في كلماته دون إخلال بالمعنى ، ولكنه منضبط بالمساحة المحددة أصلا لعموده الصحفي ، مستندا في معلوماته إلى مصادر معروفة محلية أو دولية ، غير أنني اعتقد أن الكتاب كان يمكن أن يقسم إلى ثلاثة ، كل فصل في كتاب ، وخاصة تلك المقالات التي فيها بعد عاطفي خاص لدى الكاتب مثل ذكرياته عن بلدته الأولى وما شابهها التي كان يمكن أن يطورها الكاتب لتصبح جزء من كتاب سيرة أو ذكريات .

وأخيرا فأن الرسالة التي يبعثها تيتاوي عبر كتابه ، ما تزال حية وحيوية وضرورية ، والرسالة تطالب السودانيين كافة ، شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ،

باليقظة والحذر من التآمر الغربي الصهيوني الاستعماري ، خاصة في هذه الأيام الحاسمة التي يتدافع فيها المخلصون لصيانة وحدة السودان وشعبه وأرضه وتاريخه ومستقبله ، وكشف الأهداف الخفية التي يغلفها الأعداء بشعارات مختلفة ، وستكون هذه الرسالة وثيقة للأيام القادمة التي يراهن السودانيون في كل بقاع السودان على الانتصار فيها على عوامل الفرقة والاختلاف ، إلى سواحل التضامن والتآلف والوحدة .

٢٩ محيي الدين فارس

الفارس العنيد

لم يكن الشاعر السوداني الكبير الراحل محي الدين فارس ، بعيدا عن محطة الشعراء العرب الرواد الذين كتبوا القصيدة العربية الحديثة ، والتي نقصد بها هنا قصيدة التفعيلة ، بل كان واحدا من ابرز فرسانها العرب في عموم الساحة الأدبية والشعرية العربية .

لقد كان اسمه يتألق دوما في أهم المجلات الأدبية العربية وخاصة مجلة الآداب البيروتية التي كانت تنشر للنخبة الثقافية العربية ، وكانت قصائده تنال من الإعجاب الشيء الكثير، حين يتصدى لإلقائها في المهرجانات الشعرية في هذه العاصمة أو تلك على امتداد الوطن العربي .

وكنت دائما حين اقرأ محي الدين فارس ، أتذكر بدر شاكر السياب ، ففي روحيهما بعض من تشابه خطير ، وكثير من اختلاف بيّن ، وكان أهم اقتراب بينهما هو أن القصيدة لديهما بساط كبير ملون مفروش على سعته ، ممتد إلى أطراف زواياه الأربع ، متجذر في الأرض ، ومبعد في السماء ، وهما على هذه المساحة الإبداعية يرسمان بهدوء وانفساح ، ما شاءا من المعاني والألفاظ دون ملل أو اقتضاب . وحين يمسكان بالمعنى ، فهما يتفحصانه بدقة وروية ، ويقلبانه يمنة ويسرة ، حتى تكتمل الصورة بحجمها الوسيع المقنع .

واهتم محي الدين فارس مثل بدر شاكر السياب ، بالطبيعة أيما اهتمام ، ساعدته على ذلك روحه المتأملة الساكنة على أطراف الصخب والصراخ ، والتي

تآلفت مع مفرداتها ، وكذلك مع بساطته الحياتية ، ومعيشته المتواضعة ، وقراءاته التي تأسست عليها ثقافته العميقة المتروية ، عربيا وأجنبيا ، وكان كلا الشاعرين قد قدِما من ارض القصيدة العمودية التقليدية ـ التي لم يتركاها أبدا ـ وبتفاعل حي بين الموهبة والثقافة والمعاناة ، انزاحت قدراتهما لتتعامل مع القصيدة الجديدة وتبدع فيها . وليكونا ممثلين أصيلين لها فيما بعد .

ولكن في محي الدين فارس بعض استغراب من العالم والناس والأشياء ، وكان تواجده الأكثر متأقلما داخل نفسه ورؤاه وأشعاره وتجاربه ، وان كان بعض ذلك قد انعكس على طبيعة فهم الآخرين له ، وكان الناظرون إليه يزاوجون بين احترامه الكبير لقامته المديدة في الأدب والشعر ، وبين التحفظ في إبداء وجهات نظرهم وتحديد ألفاظهم وكلماتهم في مخاطبته ، بحيث لا يمكن تفسيرها إلا تفسيرا واحدا واضحا لا غير ، لان احتمال سوء فهمه لهم قد يأتي بما لا تحمد عقباه .

من المشاهد التي اذكرها في هذا المجال ، انه مرة حين كان يلقي قصيدته في احد المرابد البغدادية ، أطال قليلا وأسهب ، وحين أشير إليه بذلك غضب ونزل من على المسرح دون إكمال إلقاء القصيدة ، مما ألقى بظلال غير مستحبة ذلك الصباح حتى التقاه وزير الثقافة العراقي وأزاح عنه ما علق في نفسه وذهنه من زعل وغضب .

كنت أزوره في بيته المتواضع بالثورة في أم درمان ، بصحبة صهره الشاعر الراحل الكبير مصطفى سند ، وكنت أحاول أن آخذ منه شعرا وذكريات ، وقصصا وآراء ، في حين كان هو مقتضبا في الأحاديث ، مشغولا بأيامه الباقية ، يأخذها على هواه ، وكنت اخفف ما وقع عليه من الم ومرض وحزن ، حتى كان أن استضافته بغداد لمعالجته قدر الإمكان ، وكنا سعداء جميعا بذلك ، غير انه ظل حزينا مكابدا

أوجاع الداء ، عبورا من الداء الجسدي ، إلى الوجع الذاتي في فقدان الحركة والتنقل ، بعد أن جرَّحه السكري بسكاكينه الظالمة ، وحوله إلى طيف يأنس بالصمت والسكوت .

وقلما كان محي الدين فارس أثناء وجودي في الخرطوم يشارك في المناسبات العامة ، أو المهرجانات الأدبية ، أو الأمسيات الثقافية ، وكان ظهوره على المشهد الشعري السوداني بقدر مرجعيته التاريخية الأصيلة ، وبصماته العربية الواضحة ، خفيفا في سنواته الأخيرة ، متواريا أكثر الأحيان ، متكئا على سريره في حوش بيته الزاهد ، يستقبل من ظل يواسيه حتى النفس الأخير .

وما زلت اعتقد انه لم ينل ما يستحقه من تكريم عربي ، ومن الحفاوة التي نال غيره من شعراء الأمة العربية اكثر مما يستحقونها . وكأني به يردد هذه [القفلة] الشعرية التي تمثل قدرا من التصور الذي كان يتبناه في حياته وشعره :

أيها الآتي إلينا

نحن لا نملك شيئاً

كل ما نملكه أنَّا نغني للرياح

مصطفى سند (يا سندي) في حضورك أو رحيلك (١)

٣٠

-١-

قبل سنوات وأنا في الطائرة السودانية القادمة من القاهرة إلى الخرطوم ، أتصفح إحدى الصحف التي وزعها علينا أخونا المضيف ، فَيفاجئني مقال لمصطفى سند بعنوان (امجد محمد سعيد حبابك عشرة) يرحب فيه بمقدمي بعد سنوات من الغياب ، تطفر الدموع من عيني .

التقيت به خلال تلك الزيارة ، والقينا شعرا في قاعة الشهيد الزبير ، مع صديقنا الشاعر الكبير سيف الدسوقي ـ أمد الله في عمره ومنحه الصحة والعافية ـ وأردت أن أراه ثانية ، فقيل سافر إلى السعودية .

حين عدت إلى القاهرة كتبت في إحدى الصحف السودانية (يا سندي) :

-٢-

يسبقني دوما مطرك اللازوردي ، فيسقي ضفافي العطشانة ، ويملا ضفافي اليتيمة .

حصانك الأسمر الفاتن ، يعدو هفهافا ، مثل ضفائر أميرة نوبية عاشقة ، بينما يلهث حصاني التعبان ، خلف غبار جوادك.

ولأنك البحر الكبير ، يا سندي ، فانك تعرف كيف تقرا جيدا تلك الأنهر النحيلة التي تسعى إليك ، وتلتحم في زرقتك الأبدية الشاسعة.

ولأنك مدار ضوئي ، يا سندي، فانك تطيِّب خواطرنا ، وتغازل شموعنا

المرتجفة في ليالي الوحدة ، والانكسار والخيبة .

تصيبني كلماتك بالشعر والدموع ، ويطعنني حبك الوارف ، بألف وردة وموجة ، ويتساقط بَردك الأبيض ، ليعانق شيب مفرقي ، وأنا اعبر أعوامي الستين، في ذات الليلة ، التي وصلت فيها إلى الخرطوم ، بعد خمس سنوات ، من الفراق ، ويا للصدف العجيبة .

يا سندي ، يا ابن السودان العظيم ، وأنت تكرم مقدمي إلى عتبات دياركم المحروسة ، عبر كلمات مشهرة على الملا ، تذكرت كم كنتُ مستقبليا ، وأنا اصفف نجوم السودان ، في ليالي الندى ، وأنا اقبِّل أيادي شيوخه ، ومتصوفيه ، وأشعل حروفي ، لتكون أقمارا ، وشموسا ، تحت سمائه ، وأنا أتعطر بترابه في الرياح الخماسينية ، وأنا اشرب من نيله الذي يسعى من الأبد إلى الأبد.

يا سندي ، وأنت الشاعر الكبير ، فإنني مثل الصبي ، أتعلق بذيل جلابيتك الحريرية ، وبكل تواضع الكبرياء ، تمنحني شهادة الشعر ، التي حين يوقعها قلمك الأمير ، فإنها عندي ، تساوي ، كل مقولات النقاد ، والدارسين .

يا سندي ، ما هذا الفضاء الرحب الذي تغرق فيه روحك السامية ، وما هذا المحيط الذي تنساب فيه مرايا محبتك ، وما هذا النور الذي لم تستأثر به وحدك ، إنما أبدا ، تفتح شبابيك إيثارك وأبواب فضلك ، لتنثره على الآخرين .

يا سندي ، اشهد أنني فخور بكل كلمة ، قلتها بحقي ، واشهد أنني مهما قلت لن استطيع أن أجاري جداول فصاحتك ، وأنت الشاعر العربي السوداني ، الذي أحبته المدن العربية ، ومنتدياتها ، ومهرجاناتها ، واحتفت به مجلاتها وصحفها ، تقف اليوم ، مع نخبة من شعراء السودان ، في بؤرة المشهد الشعري العربي ، الذي طالما أضاؤوه ، بقصائدهم الشجية ، وتجاربهم المتميزة ، ولغتهم الخاصة .

أيها الشاعر ، الذي يمسك أحصنة القصيدة ، مثل فارس متمرس ،عرك

أمواج الشعر ، وعركته ، فضاؤك ثر، وافقك ممدود .

يا سيد القصائد ، طوالها وقصارها ، فصيحها وعامييها ،العمودية منها ، والحرة ، والنثرية ، تبقى أنت ذلك الشاعر المعاصر، الذي لا يصل إلي قامته ، كثير من الشعراء العرب ، ممن ملأوا صيحة الساحة الشعرية صخبا و ضجيجا ، وأنا اعرف ما أقول .

يا سندي ، وأنت تحضنني ، وصوتك يتهدج ، وغيم دمعاتك يكاد يطفر من عينيك ، خلعت قلبي خلعا ، وأنت ترى هذا (الأمجد) ، الذي تكسر على صخرة الأيام ، سيفه ، وتاه بلده ، ولم يبق لديه غير هذه الكلمات ، وهذه القصائد التي يتكِئُ عليها ، وهو يرحل ، إلى المدن العربية ، التي عرفت أيامه الأُوَل .

حين نزلت من الطائرة ، لم أكن احمل سوى حقيبة يد واحدة ، لذا خرجت مباشرة إلى الباحة الخارجية للمطار، ولم يكن مستقبلي قد وصل ، لم اقلق ، ولكنني تساءلت مع نفسي ، ترى إلى أي بيت سأذهب ، لأبيت الليلة ، من بين عشرات البيوت ، ومنها ، بيتك ، يا سندي .

وها أنا أغادر الخرطوم بمشيئة الله ، وأنت في رحلة خارج السودان ،

أية مصادفات عجيبة .....

-٣-

لا ادري أن كان قرأها أم لا !؟

-٤-

ظللت ابحث عنه ويقال لي خارج السودان ، في السعودية ، أو انه نائم ، أو غير موجود ، ولم يقل لي احد انه مريض . وان مرضه شديد ، حتى رحل وأنا ما زلت انتظر منه رد النداء .

وداعا أيها الصياد الجميل

مصطفى سند (٢)

على قارعة الحزن السوداني العظيم

وتحت صبيب دموع الأمطار الاستوائية

بإزاء شلالات الليل الأمدرمانيّ المفتوحة

انصب خيمة من أغصان إفريقيا

منسوجة أطرافها بكتابات الخط الكوفي

وموشاة برسومات الحناء العشوائية

خيمة من بقايا ما كان منسيا في أقبية الفؤاد

أعمدتها من صندل الغابات القديمة

وقماشها من زغب البرية المترب

ومن جلود حيتان النيلين وهما يتلاويان

مثل رغبة عارمة في جسد خرافي واحد

عند مقرن بيتك القريب من الأسطورة

بين المواويل المعجونة بالأسى الغامض

وبين لا اباليات الزمن السوداني المتمدد

العائم على هواه في فجر السواحل

كفتى ينفض نفسه في النيل من نيران العشق

ومن سر السر الذي يفجؤه

عندما تحرقه نظرة البنت الأولى

التي سماؤها من عاج أمدرمان

الضارب إلى تلك الصفرة الكامدة

كم من ضلوعي كسرت أيها النمر الأنيس

وكم من شراييني غزلت للشبكة الحريرية

سأدعو إلى أمسيتك كل الكلمات البكر

واصفف لك من حروف العربية مجلسا

لن أعذرك يا صاحبي وأنت تغادرني

متسللا من أحلامي إلى حزني الأبدي

ومنسلا على حين غفلة مني

إلى جراحي التي من سيبرؤها

وأنا متسربل بفوضاي المطمئنة

لن أعذرك يا صديق النمور الاستوائية

ورفيق هوادج الدروب اللانهائية

ولما يزل بعد في جيب جلابيتك البيضاء

عناقيد أغان سمراء تتساقط في الطرقات

كشمار المانجا الغافلة عن نفسها

كنت أحاول أن ارتب لك متكئا من حرير الكلام

وأنا انتظر أن اسمع آخر قصيدة لك

من احدي عواصمنا المثقلة بالزمن والبكاء

ما الذي فعلت بي يا أيها النمر الأنيس

وتقطع من جسد ذكرياتي حنينا جديدا

ولما أزل بعد أوهم نفسي بالبدايات

وامني نفسي بإعادة المساءات الراحلة

سأنتظرك ياسندي

وأنا أراقب الطيور القادمة من أعالي النيل

سأنتظرك يا سندي

مثل مسكين اعزل على قارعة الطريق .

٣١

مصطفى عثمان إسماعيل

من الدبلوماسية الشعبية إلى الدبلوماسية الرسمية؟!

طبيب الأسنان الذي أراجعه في القاهرة بعد أن سقط نصف أسناني، شاب لطيف، وكلما تكسر ضرس وتهاوى أقول له: اخلعه رجاء، ولكنه يأبى ويظل يقول لي: الأسنان والأضراس نعمة كبرى من نعم الله عز وجل، ولا يجوز أن نفرط فيها، ونقلعها ونرميها من أول شعور بألم، وسنظل نعالج الأطراف والمنحنيات والجذور ونتكئ، على قطعة هنا، أو بعض جذر هناك، لنقيم جسرا أو ربما، متكئا، لنعيد بعض الأمور إلى نصابها.

والصديق الأستاذ الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل طبيب أسنان، إضافة إلى كونه رجل سياسة، وأطباء الأسنان يتميزون عن سواهم من أطباء التخصصات الأخرى في الطب، ذلك انك ترابط جنبهم أسابيع وأشهرا، يعرفون أسنانك وأضراسك وأخلاقك وأبناءك، وأين تقضم جيدا، وأين تنزلق اللقمة دون مضغ، ومعها يعرفون أشياء كثيرة أخرى عن حياتك، ومن جانب آخر يتمسكون بالضرس المعطوب، والسن المكسور، يرممونه هنا، ويحشونه هناك.

وقد يكون الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل، أضاف من الطب على السياسة، ومن السياسة على الطب، الصبر، وطول البال، والابتسامة الحيية، والتمسك بأي أمل، يتعرف على الآخرين جيدا، ويتفهم الأفكار والنوايا، ويصل إلى النتائج الحقيقية، حتى لو كان في خلع ضرس غير مأسوف عليه.

وكنت ازور الدكتور مصطفى في مكتبه لِماما، في مجلس الصداقة الشعبية

العالمية بشارع الجامعة بالخرطوم ، وألقاه أكثر في المناسبات المختلفة ، وكان من مساعديه أيامها الإعلامي المعروف خوجلي صالحين رحمه الله وغيره ، وكنت اشعر انه يقدر فيَّ كوني عراقيا ، وكوني شاعرا وصحفيا ، وكوني أحب السودان والسودانيين أيضا .

وظل مصطفى عثمان ناشطا حقيقيا في مجلس الصداقة الشعبية العالمية ، وأصبح للمجلس علاقات واسعة جدا مع الشعوب الأخرى ، ومع دولها ، ولا يكاد يمر أسبوع ألا وللمجلس لقاءات وأمسيات فنية ، ومهرجانات ثقافية وسياسية واجتماعية وترفيهية ، ومعارض مختلفة ، وكأني بما كان زرعه في مجلس الصداقة ، نما فيما بعد ، في علاقات شتى غير منظورة الآن ، إلا أن جذورها ضربت بعيدا .

وظللت فخورا وسعيدا ، أن من بين من ودعني وكرمني في نهاية خدمتي في السودان ، حفل جميل لمجلس الصداقة الشعبية الحميم ، وكان حاضرا فيه العديد ممن رحل عنا إلى رحمة الله ، ومن ندعو له بطول العمر والصحة والنجاح .

بعد سنوات وأنا أسير مع صحبي في القاعة الرئيسة في ديوان وزارة الإعلام ببغداد ذاهبين إلى مكاتبنا ، وإذا بوزير الإعلام العراقي يدخل بصحبة الدكتور مصطفى عثمان الذي أصبح وزيرا لخارجية السودان ، وجاء لعقد مؤتمر صحفي أو مقابلة مع إحدى شبكات التلفزة العالمية على ما اذكر ، فتنحينا أطرافا ، وهنا لمحني الدكتور مصطفى من بعيد ، وهتف باسمي أمام الجميع بتلك العذوبة والعفوية السودانية المعروفة ، فتقدمت إليه ، وسلمت عليه ، وسألني وأجبت ، وتبسم وزيري مسرورا من ذلك ، في حين شعرت بفخر واعتزاز كبيرين .

وفي الخرطوم بعد سنوات أخرى ، قلت صباح احد أيام إقامتي ، لمرافقي من مضيفيَّ بمركز الإنتاج الإعلامي ، سأرى اليوم الدكتور مصطفى عثمان

إسماعيل مستشار السيد الرئيس ، فقال كيف ولم نرتب موعدا ، قلت سأراه بطريقتي الخاصة ، وكنت قد قرأت في اليوم السابق انه سيلقي محاضرة في قاعة الشارقة ، فما كان مني إلا أن جلست مع المستمعين ، وحين لمحني ناداني أيضا بنفس الطريقة مندهشا من وجودي ، وقال لي ابقَ بعد انتهاء المحاضرة ، وهكذا صرتُ معه إلى مكتبه ، وكان حديث جميل ، ووفاء أصيل .

ثم رأيته مرارا في القاهرة وهو يناضل من اجل السودان في المحافل العربية والدولية ، ويدافع عن مصالح بلاده التي تستحق كل تضحية .

مصطفى عوض الله بشارة

٣٢

تاريخ حافل متعدد الإبداع

برفقة أخي وصديقي العزيز الأديب الصحفي محمد مبروك ، زرنا في آخر تواجد لي في الخرطوم الزاهرة ، صديقنا المشترك الأديب الكبير متعدد المواهب والإبداعات ، الاخ مصطفى عوض الله بشارة في دارته العامرة في أم درمان .

ظل يتابعنا بكرمه الأصيل وحرصه المعروف ، وظللنا نخطط لأفضل لقاء معه ، حديثا ولقاء ، وطعاما وشرابا .

ربما التقيته أول مرة خلال منتصف التسعينات في دار مجلة الملتقى التي كانت تصدر حينذاك ، واعتقد انه كان من كتابها المبرزين أو من المساهمين في رفدها بالموضوعات الأدبية المختلفة .

وبقينا نلتقي بين آونة وأخرى إما وجها لوجه ، أو عبر كتاباتنا في الصحف والمجلات .

واذكر انه كتب عن ملحمتي الشعرية رقيم الفاو ، التي كانت قد فازت بالجائزة الأولى بمسابقة الفاو الكبرى عام ١٩٨٩ وصدرت عن وزارة الثقافة والإعلام العراقية في الوقت ذاته .

وتكررت لقاءاتنا في القاهرة التي جاءها الأخ مصطفى مرات عديدة ، منها ما هو بسبب فحوصات طبية ، ومنها ما هو لضرورة العلاج ، وأقلها رغبة منه في السياحة والاستجمام ، حيث يقيم في شارع فيصل لدى صهره وابنته الطبيبة في القاهرة .

وحين يكون مصطفى في القاهرة نلتقي كثيرا ، بحضور أدباء وصحفيين من مصر والسودان والعراق ، ولديه من المعارف ما لا يعدون من الأدباء والكتاب والصحفيين ، ولطالما احتفت بقدومه صحف مثل الأهرام والأخبار وأخبار الأدب والقاهرة ، ونشرت له موضوعات مختلفة ، أو أجرت معه حوارات ثقافية وأدبية عن تجربته ونتاج جيله ، ونوهت بتاريخه الإبداعي والثقافي ودوره في إضاءة ونقد جوانب كثيرة من النتاج الثقافي السوداني قصة ورواية وشعرا ومسرحا وغيرها إضافة إلى جهوده العريضة في مجال ترجمة الأدب السوداني إلى اللغة الانجليزية .

ولن ننسى طبعا انه بدأ شاعرا وما يزال يكتب الشعر وله دواوين معروفة في هذا المجال .

حينما يكون في القاهرة يحرص على أن نذهب سوية إلى العديد من الندوات واللقاءات والأمسيات الثقافية التي تقام في اتليه القاهرة ، أو اتحاد الكتاب المصريين ، أو نقابة الصحفيين أو غيرها من صالونات الثقافة والأدب الكثيرة ، وكان الأستاذ مصطفى دائما من جملة المتحدثين والمعلقين على ما يبحث أو يطرح للنقاش .

وغالبا ما تستغل هذه الصالونات وجوده لكي يحدث الحاضرين عن آخر المنجزات في الثقافة السودانية ناهيك عن الأصول والجذور . وهو يدعى كذلك لحضور ندوات عربية متخصصة في شتى فروع الثقافة والمعرفة .

ورغم توافقنا على العديد من الشؤون الثقافية ، إلا أننا نختلف في كثير منها أيضا ، وقد دخلت معه في سجال طويل عريض في بيته حول الشعر الحديث والكلاسيكي ، سجله أخونا محمد مبروك في صفحته الثقافية ، الذي كان يحرض احدنا على الآخر وهو بيننا مستمتع بهذا الخلاف .

كنت أرى وما زلت ، أن لابد لناقد عريق مثل الأستاذ مصطفى عوض الله بشارة أن يخفف مما مضى عليه الزمن وفات ، وان يؤمن أن العديد من الشؤون الأدبية أصبحت واقعا ، وأنها عبرت مرحلة النقاش والسجال ، مثل مناقشة مشروعية الشعر الحر ، ذلك أن الناس يناقشون الآن وضعية قصيدة النثر ، والقصيدة الرقمية وما إلى ذلك . ورغم انه موقن بما أرى ، إلا انه ما يزال يحن إلى القصيدة العمودية ومصطلحات الجزالة والفخامة وغيرها ، على أنني أيضا لست ضد أي نوع من الأنواع الأدبية ، خاصة الآن ونحن في مرحلة تداخل الأصناف الأدبية بعضها في بعض ، لا بل تداخل الأصناف الفنية أيضا .

اصدر الأستاذ مصطفى مؤخرا عددا من الكتب النقدية والدواوين الشعرية وسوف نجد متسعا من الوقت لنسلط الضوء عليها مستقبلا أن شاء الله ، منها كتاب [الشعر السوداني على منصة التاريخ] وهي دراسة أدبية تاريخية للفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٤ ، و كتاب [شعراء في مدائن الإلهام] الذي نوه به الشاعر واللغوي المصري فاروق شوشه ودعا إلى انجاز ما يشابهه في مصر والكتاب يتناول ما قيل في المدن السودانية ، وكتاب [مواقف ورؤى في الشعر السوداني المعاصر] وهو دراسة أدبية ، إضافة إلى مجموعة شعرية .

وأخيرا أقول أن الناقد والشاعر والمؤرخ الثقافي الأدبي والمترجم والإذاعي مصطفى عوض الله بشارة ، ثروة وطنية وأرشيف إبداعي ، لابد من الاستفادة من معلوماته الزاخرة ، ومن الإرث الكبير الذي في متناول يديه ، وليس كثيرا أن يقود الآن مجموعة عمل لجمع وتوثيق وتصنيف المنتج الثقافي الأدبي السوداني ، على الأقل منذ الاستقلال حتى الآن ، إذا لم نطمح إلى ابعد من ذلك ، برعاية صديقنا العزيز وزير الثقافة السموأل خلف الله ، وسيكون هذا التوثيق الذي لابد أن يصدر لاحقا في كتب ورقية ، واسطوانات الكترونية مدمجة ، انجازا وطنيا وثقافيا عظيما .

واختم فأقول أن مصطفى عوض الله بشارة أستاذ كبير فاضل ، وإنسان عالي الجناب ، رقيق الحاشية ، هادئ الصوت ، عفيف اللسان ، خفيف الظل ، غاية في الود والمحبة ، شديد الكرم .

ولنا به لقاءات قادمة أن شاء الله عبر الكلمة والثقافة والأدب .

٣٣ بركات (أغداً ألقاك)

على الشاعر السوداني الراحل الهادي آدم

في مهرجانات المربد الشعري الذي كان ينعقد سنويا في بغداد ، وينتقل إلى عدد من المدن العراقية ، مثل النجف الأشرف والبصرة والموصل ، كان الوفد الشعري والنقدي السوداني غالبا ، من أكثر الوفود العربية الشعرية والبحثية تألقا ونشاطا ، في إلقاء الشعر ، أو المساهمة في الندوة النقدية ، أو التواصل مع وسائل الإعلام الورقية والإذاعية والتلفزيونية .

في احد المرابد المتأخرة ، كان الشاعر السوداني الكبير الراحل الهادي آدم رحمه الله ، من ضمن قائمة الشعراء المدعوين .

كانت صالة فندق المنصور ميليا الرئيسية ، تغص بالأدباء والشعراء والصحفيين والفنانين والباحثين ، من الأقطار العربية ، ومن شتى بقاع العالم ، ناهيك عن العراقيين ، واذكر أن عدد المشاركين فقط من خارج العراق ، في واحد من هذه المرابد ، كان يزيد على ألف شاعر ومشارك . لا تكاد تجد لك فسحة من مكان ، وقوفا أو جلوسا ، وإذ كنت مرافقا للوفد السوداني في تلك السنة ، وقادما معه من الخرطوم ، لمحت الشاعر الهادي آدم جالسا على أريكة واطئة مريحة في مقهى الشاي بالصالة ، ينظر إلى هذا الجمع الكثيف المحتشد ، كان ساكنا يتأمل ، فيما عشرات الكاميرات تسجل أحاديث مصورة للشعراء والكتاب والنقاد ، وأجهزة التسجيل الصغيرة بأيدي الإذاعيين والصحفيين ، وهم يتناثرون هنا وهناك .

سلمت عليه وتجاذبت وإياه أطراف الحديث ، وشعرت ببعض كآبة تطبع ملامحه ، واستياء مخفيًا يكاد يبين من كلامه ، إذ لم يطلب منه احد لقاء ، ولم يتقدم إليه احد برجاء حوار ، أو حديث ، أو مقابلة ، فما كان مني إلا أن ناديت احد مصوري التلفزيون ممن اعرفهم ، وقلت له : هل سمعت أغنية أم كلثوم (أغدا ألقاك ؟) قال : طبعا طبعا ، قلت أتعرف الشاعر الذي ألفها ، قال : الشاعر السوداني الهادي آدم ، قلت : هل تعرفه شخصيا ، قال : كلا ، قلت : فهذا هو الشيخ الجالس بجانبي ، وسرت المعلومة سريان النار في الهشيم في أروقة الفندق ، وبين مراسلي وكالات الأنباء العراقية والعربية المختلفة ، الجميع يطلبون لقاء أو مقابلة ، ومن مصور إلى مصور ، ومن مجلة إلى صحيفة ، حتى أنهك الشاعر ، وتعب ، وهرب إلى غرفته ، واخذ يعتذر عن اللقاءات ، واذكر أن مما قاله لي فيما بعد ، ليتك لم تخبر أحدا ، وقال لبعضهم انتم تسألون عن قصيدة واحدة من شعري ، ليتكم تعرفون ما كتبنا في الدواوين والكتب ؟. نعم ساءه أنهم يعرفون ، أغدا ألقاك ، فقط ، ولكن كيف سيتسنى لهم معرفة المزيد ، فطيبت خاطره وقلت : يا سيدي انك محظوظ ، على الأقل ستضيئ هذه القصيدة الطريق لأخواتها الأخريات ، وتستطيع أنت أن تأخذ المبادرة وتتحدث كما تشاء .

حين عدنا من بغداد إلى الخرطوم ، بعد انتهاء المهرجان ، وفي المطار ، كان السودانيون المتواجدون هناك قد عرفوه ، فاخذوا يتهامسون ، ويسلمون عليه ، ويشيرون إليه ، على انه الهادي آدم ، صاحب قصيدة ، أغدا ألقاك ، لأم كلثوم ! .

يوسف الحبوب

٣٤

من أبروف إلى رأس الخليج العربي

كأنما القدر جمع الشاعر يوسف الحبوب وأخوته في القاهرة ، ليلتقوا على موعد عجيب ، بعد فراق طويل ، وليودعوا أباهم الرائع رحمه الله إلى مثواه الأخير ، بعد جراحة لم تمهله طويلا .

كان كل واحد منهم في مكان ، فيوسف في عُمان ، والبقية في استراليا وأوربا وأمريكا ، وبقي واحد منهم فقط في أم درمان مع الوالد والوالدة ، قريبا من شواطئ أبروف .

كان والده من أطيب الناس الذين عرفتهم ، نسمة صباحية رقيقة ، وابتسامة دائمة ، وتقوى وعفة وهدوء ، كنت أزوره دائما واستمتع بحديثه الجميل ، ولم أره إلا وكان قادما من الجامع ، أو مغادرا إليه .

عرفت يوسف باكرا جدا ، في قاعات الشعر والأدب والصداقة والشباب ، والقراءة والاستماع والسفر والليالي الطويلة التي لا ننام فيها ، في بغداد والخرطوم، والموصل والبصرة ، والقاهرة وعمان .

ظل يوسف شاعرا ، يتعامل مع الشعر تعاملا آنيا ، وقد أقول مزاجيا ، ينتظر القصيدة إلى أن تأتيه ، وقد تأتيه ، ولا تجده في البيت ، وقد تأتيه وتجده ولكنها تجده مثلا ، قد أضاع قلمه في مكان ما ، أو نسيه البارحة ، فترجع إلى حيث كانت فكرة عائمة على سطح الذاكرة ، وهذا التعامل مع القصيدة هو الذي جعل يوسف بعيدا عن النشر ، زاهدا ، راضيا أن يكون في ظل شجرة الشعر ، وليس بعيدا عنها .

ويوسف يكتب قصيدته بانفتاح شديد على الحداثة وقصيدة النثر ، منذ زمن طويل قبل أن يشتد ساعد قصيدة النثر هذه في الآونة الأخيرة ، وهي أيضا قصيرة مكثفة في غالب الأحيان ، إحالاتها غامضة شيئا ما ، ولغتها تلعب بالظلال لغة النشوان الساهي .

كنت أقف في محطة البنزين في حي العمارات بالخرطوم ، كان الوقت صيفا والحرارة تشتعل بين الإسفلت والتراب ، منتظرا دوري في تعبئة سيارتي ، وإذا بعربة فكسواكن قديمة ، واقفة عن شمالي ، واحدهم يعالج في أسلاكها ، وهو بجلابيته البيضاء إلي تلطخت بالدهان هنا وهناك ، وإذا بهذا الواحد هو الشاعر السوداني يوسف الحبوب ، تعانقنا طويلا ، وتواعدنا أن نلتقي ، وظللنا نلتقي إلى أن فرقنا الزمان .

ظهر فيما بعد أن بين بيتي وبيت يوسف مسافة عدة مئات من الأمتار ، ظللت قريبا من يوسف الحبوب ، ولم يمر أسبوع أو أسبوعان إلا ، وأراه ، وكان عليلا دوما ، وله صداقة حميمة مع الكنين ، إذ طالما دهمته الملاريا على حين غفلة ، فتطرحه أرضا أسبوعا أو أسبوعين .

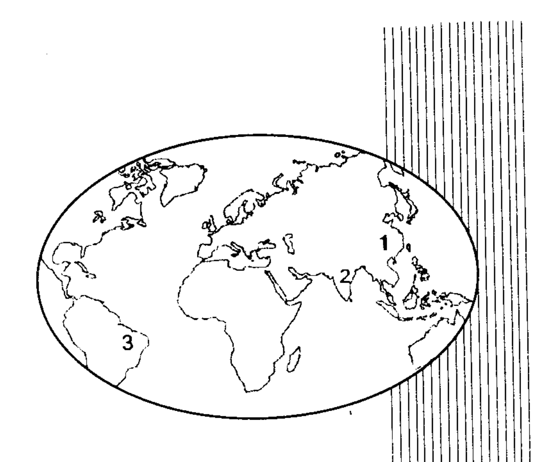
لا ادري لماذا يتمكن مني انطباع عميق ، أن يوسف يأخذ من كل شيئ بطرف ، في الشعر والمحاماة والسياسة والسفر، ولكن فيه صفة لا تعوض هي حبه للحياة ، وانسياقه وراء البهجة البريئة ، لا يسأل عن النتائج ويدعها للأيام تفعل ما تشاء ، يحتاج المال ولا يحبه كثيرا ، وقد لا يحتفظ به مدة طويلة .

ونحن من الأصدقاء القليلين الذين يتشاتمون فيما بينهم ، ما أن نلتقي حتى يشتمني واشتمه ، بعد القبلات طبعا ، وما أجمل الشتيمة من فم صديق ! لا ادري هل هي عادة عربية قديمة ، ونحن أحيانا في العراق حينما نعجب بأحد جدا ، ربما شتمناه إعجابا ! .

بين حين وآخر يأتيني صوته الصارخ بمودة من مسقط في عمان ، محملا بحرارة رأس الخليج العربي ، ونداوة صباحاتها ومساءاتها .

مرة في بيتي في الخرطوم ضحكت طويلا ، حين قال لابنه الصغير كمال ، وهو لمّا يتجاوز الزحف إلى الحركة : بالغتَ يا كمال ، وكان قد اغرق بنطال أبيه بماء الطفولة ! ويوم أمس قلت له أين كمال ، قال : ذهب إلى الدراسة في استراليا عند عمه حفظه الله ! ياه ، بالغتَ يا يوسف ، كم كبرنا وشاخت شراييننا ، وصرنا ننام واقفين .

ولي عند يوسف أشياء كثيرة ، وله عندي أشياء كثيرة أيضا ، يفصل بيننا الآن الوقت ، والجغرافيا ، وماء عذب ، وآخر مالح ، وشعر مكتوب ، وشعر غير مكتوب ، وصدفة أخرى قد نلتقي فيها على قارعة الحياة ، وقد لا نلتقي .!



القسم الثاني



حين احتفلنا بعيد استقلال السودان

١

عيد استقلال السودان ، يوم عزيز على قلوب السودانيين والعرب جميعا ، وحينما رفع الزعيم إسماعيل الأزهري العلم السوداني على الصارية العالية ، فان ذلك كان إيذانا بولادة دولة فتية ، ستسهم في شد أزر الأمة ، ناهيك عن إسعاد شعبها وتقدمه .

لم تمر إلا أشهر قليلة على افتتاحنا المركز الثقافي العراقي بالخرطوم بحري حين أطلت علينا من بعيد ذكرى الاستقلال ، وحقيقة ، كنا لا نفرق بين نشاط عراقي ، أو سوداني ، أو عربي ، وكنا نعتبر المركز موقعا عربيا للجميع .

تحدثت مع أخي وزميلي بابكر محمد الحسن ، الذي كان يعاونني في إدارة المركز ، ودارت أفكار عديدة ولكننا آخر الأمر ، قررنا أن نقيم معرضا للصور الفوتوغرافية عن الاستقلال ، وكنت أتوقع أن أجد صورا جاهزة موجودة ، وكافية لتشكل معرضا بأربعين صورة ، مثلا ، ولكننا فوجئنا بعدم وجود الكثير من الصور ، ناهيك أن حجمها كان صغيرا ، لا يتلاءم مع العرض على البارتشنات ، أو على جدران الصالة .

راجعنا أرشيف الصور الفوتوغرافية ، في وزارة الثقافة الإعلام ، ووجدنا ضالتنا من الصور ، وساعدنا الأخوة في قسم التصوير مساعدة حقيقية ، ولكن الصور كانت صغيرة الحجم ، وقسم منها يكاد يتلف ، ولكننا كبرنا الصور بحجم مناسب ، ونجحنا في أن نرتب أكثر من أربعين صورة فوتوغرافية تقريبا ، صحيح

أنها لم تكن كلها عن الاستقلال ، ولكننا بررنا لأنفسنا ، أن نأتي بصـور مسـاندة ، أو ناتجة عن فعل الاستقلال ، مثل خارطة السودان ، وصور مستقلة لعدد من أبطـال السودان التاريخيين ، وعدد من الشخصيات السودانية التي أسهمت في الدفاع عن السودان وشعبه ، بعض الأحداث التاريخية ، لوحات تشكيلية ، أعـلام سـودانية ، لافتات مزينة بجمل وكلمات من قادة الاستقلال ، وغيرها من الأشياء التي أثـرت المعرض ، وأقنعتنا بان المعرض أصبح جـاهزا للافتتـاح ، وانـه سـيكون نشـاطا متميزا .

وهذا الذي كان ، وبقي المعرض شهرا كاملا ، يستقبل الزوار ليس فقط مـن المواطنين السودانيين ، وإنما أيضا من عدد مناسب مـن المسـئولين والصـحفيين والفنانين والأدباء والمثقفين .

وكانت مبادرة أعطت الانطباع المطلوب ، وهو أن المركز الثقـافي العراقـي ، في هدفه الأسمى ، إنما هو مركز سوداني ، وان بغداد أو الخرطـوم أو أيّـة عاصـمة عربية ، إنما تحتل نفس الموقـع الأثيـر مـن قلـوب العـرب ، سـودانيين كـانوا أم عراقيين ، أم غير ذلك .

تحية ليوم استقلال السودان ، شمسا مضيئة ، وقمرا منيرا .

٢ الذكرى المئوية الثانية لوفاة ود ضيف الله

صاحب كتاب الطبقات

يكاد يكون كتاب (الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان) لمؤلفه الشيخ الفقيه المؤرخ ، محمد النور بن ضيف الله ، المعروف بود ضيف الله ، من أشهر الموروثات الكتابية المدونة في التراث السوداني .

ولد الشيخ ضيف الله عام ١٧٢٧ م ، في حلفاية الملوك ، وتوفي ودفن فيها عام ١٨٠٩ م ، ويقال عام ١٨١٠ م ، متأثرا بمرض الحمى الصفراء الذي كان متفشيا في البلاد ، على حد قول الحاج احمد بن محمد بن علي ، في كتابه تاريخ السلطنة السنارية ، وعلى ما ذكرته المصادر الكثيرة المتوفرة .

ولعل النظرة المعاصرة الحديثة إلى كتاب الطبقات ، وما ينتابها من اختلاف حول تقييمه فنيا وموضوعيا ، لن يؤثر على حقيقة كونه يسلط الضوء على مرحلة هامة ، من تاريخ ومسيرة الشعب السوداني ، ويمثل إحدى وجهات النظر التي كانت سائدة في المجتمع السوداني آنذاك ، وما زالت هي وغيرها ، متواجدة على الساحة السودانية حتى الآن ، بل على الساحة العربية والإسلامية ، على الرغم من أن عددا من الباحثين يشيرون إلى محاولة ود ضيف الله ، أن يكون حياديا وموضوعيا ، في التعامل مع الأشخاص والأحداث والمفاهيم في عصره ، لم تكن موفقة بشكل واضح ، على حد توصيفهم .

ولقد كتب الكثير من الباحثين ، عن طبقات ود ضيف الله ، وأصبح الكتاب

احـد رمـوز وعلامـات النتـاج التـاريخي الأصـيل للشـعب السـوداني ، ولهـذه الاعتبارات وغيرها أيضا ، فلا بد من اعتباره ملكا ثقافيا عاما ، ومدونة شخصية في الوقت ذاته ، لكل فرد مهما كان توجهه العام ، ومهما كانت طبيعة نظرته للحيـاة ، ومهما اختلف أو اتفق مع الكتاب والكاتب ، أو لم يتفق .

ومثلما تعامـل الشـعوب الأخـرى ، في مشـرق الأرض ومغربهـا ، الزاخـرة بالإبداعات الحضارية التاريخية القديمة ، ارثها القديم ، فلسفة وفكرا وأدبا وفنونا وعقائد ، كما لدى ارث وادي الرافدين القديم ، والمصـري الفرعـوني ، واليونـاني والفينيقـي ، والهنـدي والصـيني ، والإفريقـي ، و معتقـدات حضـارات الازتـك والانكا في أمريكا ، وغيرها ، وما وصلنا من هذه الحضارات القديمة ، مما نتفق أو نختلف عليه ، لا بد أيضا التعامل مع الإرث السوداني بـنفس المنطلـق والـتفهم ، ومنـه كتـاب الطبقـات لـود ضـيف الله ، وغيـره ممـا زخـرت بـه أرض السـودان وتاريخها ، من آثار وكتابات وتماثيل ومنحوتات ورسوم وأبنية قديمة وغيرها .

وأنا لا أريد هنا ، أن ادخل في نقاش ، عن طبيعة ما ورد في الكتاب ، ولا في سبيل الدفاع عن وجهة النظر هذه أو تلك ، فذلك ليس من اختصاصـي ، ولكننـي أدعو إلى الاحتفاء به كنص ثقافي قديم ، من الأدب الإنساني والتاريخ الموروث ، والاحتفاء بصاحبه الذي كان واحدا من السباقين للتعامل مع الكلمة ومع الكتـاب والثقافة .

سلطنة دارفور

٣

المحمل الشريف وأبيار علي

لأهل السودان قاطبة تعلق صميم بتأدية فريضة الحج ، حالهم في ذلك حال الشعب العربي والشعوب الإسلامية في كل مكان .

والشواهد كثيرة على الشعور الفياض ، والمواقف المشهودة التي وقفها الشعب السوداني خلال مواسم الحج ، ومنها ما تتناقله كتب التاريخ عن إرسال أهل دارفور محمل الحج إلى الديار المقدسة سنويا .

يقول الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك نائب العميد للدراسات العليا والبحث العلمي الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا أن سلطنة دارفور السودانية ، كانت تتواصل مع الأراضي المقدسة من خلال الصُرَّة السنوية التي كان يرسلها سلاطينها إلى الحرمين الشريفين ، في أم القرى ويثرب . وأن كل صُرَّة من هذه الصُرر كانت تُصحب برهط من الأغوات الذين اختيروا للعمل في خدمة الحرمين الشريفين وصون مرافقها، وكانت أجورهم تدفع بصفة دورية، وتمثل جعلاً مهماً من صُرَّة دارفور.

ويقول أن المصادر التاريخية تحدثنا أن تحرك المحمل الشريف كان له طعم ومذاق خاص في مدينة الفاشر، حيث تتقاطر جموع المودعين إلى ساحة قصر السلطان علي دينار، ليشهدوا موكب المحمل الشريف الذي يتقدمه أمير الحج، وإمام الصلوات الجامعة، وفلول الحجيج القادمة من مدن دارفور وضواحيها والتخوم المجاورة لها. وعندما يستقيم ميسم التجمع في ساحة القصر السلطاني،

ويتعالى صوت القرع على نحاسات السلطان، وترفع أصوات المزامير، يخرج ممثل السلطان إلى الجموع ويخطرهم بأوامره القاضية بتحرك المحمل الشريف .

وفي ضوء هذه الإشارة السلطانية يبدأ الموكب بتلاوة آي الذكر الحكيم التي يتلوها طلاب الخلاوى وحفظة القرآن، زافين بها المحمل إلى مشارف مدينة الفاشر. وبعد ذلك يتوجه الموكب صوب الحاضرة الخرطوم، محروساً بجند من الفور يحملون حراباً مزوقة بريش النعام، وبعد راحة قصيرة في الخرطوم يتجدد المسير تجاه الأراضي المقدسة عبر ميناء سواكن ومن بعدها بورتسودان.

ويقال إن الناس في جدة ومكة كانوا يخرجون زرافات ووحداناً لمشاهدة محمل دارفور وحراسه الذين درجوا على تقديم بعض العروض الفنية بحرابهم المزوقة بريش النعام وذلك في خفة ومهارة.

ويشير الباحثون إلى أن ابيار على وهي ميقات أهل المدينة المنورة للحج أو العمرة، وكانت تسمى في زمن النبي صَلّى الله عليه وسلم ذي الحليفة. وسميت بذلك نسبة لعلي بن دينار. وعلي بن دينار هذا جاء إلي الميقات عام ١٨٩٨م حاجاً (أي منذ أكثر من مائة عام) ، فوجد حالة الميقات سيئة، فحفر الآبار للحجاج ليشربوا منها ويُطعمهم عندها، وجدد مسجد ذي الحليفة، ذلك المسجد الذي صَلّى فيه النبي وهو خارج للحج من المدينة المنورة، وأقام وعمّر هذا المكان، ولذلك سمي المكان بأبيار علي نسبة لعلي بن دينار.

الفندق الكبير

٤

حين هبطت الطائرة السودانية في مطار الخرطوم قبل المساء بقليل ، كان الجو ما يزال حارا ، وعدد الركاب لم يكن كثيرا ، وحين أصبحت في الباحة الخارجية لمحت عن بعد المرحوم السفير العراقي عبد الصمد حميد علي ، الذي كان قد ودع وفدا عراقيا قبل قليل ، وكنت اعرفه سابقا ، فأخذني رفقته وأَمرَ موظفَ العلاقات في السفارة أن يأخذ حقيبتي إلى الفندق الكبير .

أما أنا فقد اصطحبني السفير إلى دعوة عشاء في منزل احد الأخوة العراقيين ، ممن كانوا يعملون في المنظمة العربية للتنمية الزراعية . ثم اقلّني بعد ذلك متكرما إلى الفندق الكبير، لأنام أول ليلة لي في الخرطوم ، أمام أمواج نهر النيل الأزرق .

حوالي شهر ، بقيت مقيما في هذا الفندق التاريخي الجميل ، الذي ذكّرني مباشرة بفندق المحطة في الموصل ، وبفندق بغداد في شارع السعدون ، حيث البناء على الطراز الانجليزي المعروف من أيام الاستعمار البريطاني .

حين استيقظت صباحا ، اكتشفت أن الفجر لما يزل في خطواته الأولى ، فنزلت إلى حيث النيل الذي يتهادى من أول الزمان ، جلست على الحاجز الإسمنتي العريض ، وبدأت روائح الطبيعة الثرة تتدفق مثل شلال غير مرئي ، في ألوانه وأشكاله المتناثرة هنا وهناك .

وشممت رائحة خبز في انفي ، لست اعرف هل كان خبزا ينضج على نار قريبة ، أم انه ذكرى خبز أمي عندما تلقيه إلينا وهي تستله بحركة سريعة من فوهة

التنور ، في سطح منزلنا الموصلي القديم .

نزلتُ إلى حافة الماء الجاري في صفاء وهدوء عجيب ، بينما كان العشب الأخضر يتسلل من بين شقوق فتحات الاسمنت والحجارة المرصوفة ، وكان لابد أن يجد له طريقا ما ، ويلقي باخضراره المولود توا على ما يصادفه من مساحات ودروب .

أنا اعرف صباحات حوافي الأنهار ، واعرف الشطآن المذهلة في الفجر الأول ، واعرف الجزر التي تتحول من هنا إلى هناك ، بين أسبوع وآخر ، وتعلمت السباحة باكرا جدا ، حين ألقاني أبي إلى اليَمِّ العميق ، ومضى أمامي ، تاركا بيني وبينه مسافة متر لم يدعه ينقص حتى تعلمت السباحة مضطرا مثل الحيوانات البرية .

نعم أيها النيل الرفيق الذي ألمسُ ماءكَ الآن ، أنت ككل الأنهار ، حين تصافحك يد غريب ، تعرف من أي شقيق لك أتى ، وفي أية جزر رعته النجوم والرياح .

جلست وأنا في ثيابي الصيفية الخفيفة ، على إحدى الكراسي الموزعة في الساحة الخارجية المرتفعة للفندق ، حول طاولات متفرقات ، أتأمل المشهد حتى ضيفني النادل الساهر بأول فنجان قهوة صباحي لي في الخرطوم ما يزال طعمه ينساب في فمي حتى الآن ، ومعه كوب ماء في اكبر قدح رايته في حياتي ، من الأقداح المعروفة عن الفندق الكبير التي ما زلت اذكرها .

لم التحق بعملي ذلك اليوم ، وبقيت في الفندق للراحة ، فيما زارني عدد من الأصدقاء جالبين صحفا وفاكهة .

كانت الحركة في الخرطوم تخف قليلا بعد العصر في تلك الأيام من الشهر الثالث في عام اثنين وتسعين وتسع مئة وألف ، تمشيت قليلا في شارع الكورنيش،

اشتريت شيئا من الفول السوداني المحمص ، قرأت بضع صفحات من كتاب ، وبعد العشاء المبكر شاهدت برامج التلفاز ، وكان من ضمن برامجه حلقة من برنامج في ساحات الفداء ، وكانت مخصصة تقريبا لتصوير اللحظات الأولى من إصابة احد المقاتلين من قوات الدفاع الشعبي ، ومن ثم مفارقته الحياة وهو يبتسم متهلل الوجه والجبين ، وعرفت بعدئذ انه قارئ القرآن الشهيد عبيد ختم بدوي .

كان المشهد ساحقا بالنسبة لي ، رغم إنني عشت كل سنين الحرب العراقية الإيرانية موظفا ومديرا لتلفزيون الموصل ، ومرت علي الآف الصور التلفزيونية المختلفة ، وكنا لا نبث إلا ما كان معتدلا من حيث تأثيره على المشاهدين .

أما لقطة استشهاد عبيد ختم بدوي فقد كانت عفوية وطبيعية إلى حد أنها أغرقتني بحزن شفاف ومدمر . كان متكئا على جذع شجرة عملاقة وهو ينزف من جراحة الخطيرة ، أحسست انه كلما كان يقترب من الموت ، فانه كان يندغم ويتوحد في هذه الشجرة الخضراء ، وحين أطفأ الروح ، كان كأنه قد أصبح جزءا منها ، راحلا في خضرتها الأبدية الدائمة .

أبكاني المشهد ، وفي تلك الليلة كتبت المسودة الأولى من قصيدة أعالي النيل ، وهي أول قصيدة اكتبها في السودان في ليلتي الثانية في الخرطوم .

النمر الصخري في المتحف السوداني

٥

متحف الخرطوم الآثاري التاريخي الحضاري، احد الأماكن المهمة والنادرة والجميلة في العاصمة السودانية، لما يعكسه من صور ومشاهد وشواخص عن الجذور التاريخية للشعب السوداني.

كان مكانا أثيرا لدي، وطالما كنت أزوره وحدي، أتأمل مقتناياته وتماثيله ومحتوياته، سواء داخل الصالات أو خارجها.

ودائما كنت أقف عند تمثال النمر الصخري المتشبع بالحياة، والغارق في الجمال، حتى أنني كتبت قصيدة، أُصور اندفاعه النمر إلى الإمام، وكأنه يحاول الخروج من عالم الحجر إلى فضاء الدنيا، والتمرد على السكون المقيد فيه، والانطلاق إلى حرية الروح والجسد.

وكنت دائم الإحساس، أن ما موجود فعلا من متاحف سواء في العاصمة المثلثة، أو غيرها من مدن السودان، هو اقل كثيرا مما يتوجب أن يكون عليه الحال، وما يجب عمله في مجال الآثار السودانية.

والسودان الذي يتمتع بحضارات وثقافات عديدة، مثل ألوان الطيف، شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، بامتداد المليون ميل مربع، لابد أن يكون له في إطار مشروعه المستقبلي الناهض، خطة واسعة لإضاءة موروثه الحضاري الإنساني عبر العصور، سواء بالاهتمام ببناء الصروح والمتاحف الجديدة، أو فتح الفروع المختلفة لدراسة الآثار في المعاهد والجامعات السودانية، وإصدار

المطبوعات والمنشورات والدراسات التخصصية عن مختلف جوانب الآثار ، وتصوير وتوثيق كل المناطق التي يوجد بها آثار وعاديات ، وإنشاء الجمعيات والمنتديات والاتحادات التي تهتم بالآثار ، وما إلى ذلك مما يعرفه الآثاريون .

إن الاهتمام بالآثار ليست قضية ترف ثقافي ، ولا هو جانب ثانوي من الحضور الثقافي القومي ، ولا بد له أن يتجاوز المختصين بها من أكاديميين وموظفين ، إلى كافة فئات الشعب السوداني ، وفي مقدمتهم المهتمين بالشأن الإعلامي والثقافي والسياحي الرسمي ، باعتبار أن ذلك جزءا من تطور الهوية الوطنية والقومية .

كذلك لابد أن يتم العبور من قضية الأثر نفسه إلى قضية الاهتمام بالسياحة الآثارية بجوانبها المختلفة ، والتي تحصد منها دول كثيرة في العالم ، أموالا طائلة سنويا .

والذي دفعني حقيقة إلى الكتابة عن موضوع الآثار ، ما قرأته مؤخرا في الصحف العربية ، واهتمت به وكالات الأنباء الدولية عن اكتشاف تماثيل لمملكة الكوش بالسودان ، وان قائمين على تنقيب الآثار في السودان قالوا إن تماثيل ضخمة من الغرانيت خاصة بأحد الفراعنة ، وغيره من الملوك عثر عليها بالسودان، في اكتشاف أذهل علماء الآثار ، لدلاته على مدى توغل الإمبراطورية الكوشية جنوبا ، وأسفر التنقيب عن العثور على أربعة تماثيل ملكية للفرعون ترهاقا (٦٦٤-٦٩٠ ق.م) ، والملوك سينكامانيسكان (٦٢٣-٦٤٣ ق.م) ، وأسبيلتا (٥٦٨-٥٩٣ ق.م) ، إضافة إلى تاج ملك رابع لم يتم التعرف عليه بعد .

أن هذه المكتشفات الآثارية الجديدة التي أذهلت علماء الآثار على حد تعبير الخبر ، حافز مهم على أن ننظر إلى المستقبل ، واحتمالات العثور على مقتنيات أخرى كثيرة ، وينبغي أن نتهيأ لاستيعابها وحفظها ، وفق المعايير الفنية الدولية ، وان نقدمها لأبناء شعبنا في السودان ، والعالم العربي ، وكافة أنحاء العالم ، بصورة تليق بهذا الإرث الحضاري العظيم .

٦ مكتبة البشير الريح في أم درمان

مرّات كثيرة زرت وترددت فيها على مكتبة البشير الريح في أم درمان القديمة ، كنت اذهب إليها منفردا ، اركن سيارتي أمام بابها ، والى قاعات الكتب والمراجع ودواوين الشعر والمجلات ، والمطالعة مباشرة ، أتصفح الفهارس وأتطلع إلى العنوانات الكثيرة الموجودة ، وأكثر ما كان يشغلني تلك الكتب التي لا يمكن أن تراها إلا صدفة ، وفي مكتبات لن يتسنى لك أن تديم علاقتك معها بفعل التنقل والسفر ، أو انتهاء مدة العمل ، أو لكون الزيارة سريعة وما أشبه ذلك من ظروف .

ولطالما وجدت في الخرطوم خلال إقامتي فيها لمدة خمس سنوات ، كتبا ودواوين شعر وروايات ، لو أكن اصدق أن أراها ، كما كنت أجد أشياء كثيرة عن السودان وتاريخه وقبائله ولهجاته وشخصياته ، ما لا يمكن أن أجدها في مكان آخر غير السودان ، ولا يقتصر ذلك على المكتبات العامة ، إنما المكتبات الأخرى الخاصة ، ولطاما رأيت في بيوتات أم درمان وبحري خاصة ، مكتبات شديدة الخصوصية والثراء .

أما على الأرصفة الأمدرمانية والخرطومية ، فكنت أديم النظر على عناوين الكتب المتربة ، فأجد كتبا ومجلات تستثيرني حقا . اشتريت مرة العدد الأول من مجلة الهلال المصرية ، تصور ، ومرة اشتريت كتابين كنت ابحث جاهدا ، عنهما هما ديوان الشاعر المكسيكي العظيم ذي الأصول الهندية الحمراء ، اوكتافيو باث [حجر الشمس] ، وديوان [الفلك ضيقة] لسان جون بيرس .

نعود إلى ذكر مكتبة البشير الريح ـ وكما يقول الجاحظ نعود إلى ذكر العصا

فنقول ـ كنت اذهب إلي المكتبة أيضا في مناسبات ثقافية وفكرية وأدبية عديدة ، وقد ألقيت في فنائها وساحتها الداخلية التي تتحول إلى مسرح فسيح بمنصة ومايكروفون ، قصائد شعرية ومشاركات ومداخلات نقدية ، في أمسيات كنت ادعى إليها ، وكنت احضر حتى بعض المناسبات والأمسيات الثقافية والفنية التي كنت اقرأ إعلاناتها في الصحف ، ناهيك عن حضور الملتقيات الثقافية التي كان يحاضر فيها أساتذة إجلاء من السودان ، ومشاركون من خاج السودان في مختلف التخصصات الثقافية .

صحيح أن المكتبة كانت حديثة نسبيا ، كما عرفت ، حيث افتتحت عام ١٩٩٠ ، إلا أن الحضور الكثيف من الأساتذة والطلبة والمراجعين ، رجالا ونساء، كان يمنحها شخصية ثقافية تتجاوز كونها مكانا لإعارة الكتب والمجلات والمصادر ، إلى منتدى ثقافي رصين ، وموقع اجتماعي رفيع المستوى .

وكانت مكتبة البشير الريح تذكرني بالمكتبة العامة في الموصل ، التي كنت أتردد عليها منذ أن كان اهتمامي بمجلة سمير المصرية في الطفولة ، حتى وصلنا فيما بعد إلى كتب الشعر والفن والفلسفة والتاريخ والاجتماع ، وما زلت أتذكر النافورات الحجرية الممتدة أمام المكتبة المقسمة عرضيا إلى نصفين بينهما ممر مرمري ، وعلى رأس كل جانب ، يقف أسد حجري يخرج الماء من فمه طيلة الليل والنهار ، والشتاء والصيف .

كان وجود المكتبة العامة هذه في أمدرمان ، علامة على اهتمام الناس بالكتاب والقراءة ، ولعل أكثر الأمكنة التي تبقى في ذاكرة الإنسان هي المكتبة التي يعاودها مرة بعد مرة ، إذ سيجد فيها دائما شيئا جديا ، سواء من المطبوعات ، أو من إقامة المناسبات الثقافية والفنية المختلفة .

ولعلني وأنا اذكر الآن مكتبة البشر الريح العامة ، أدعو إلى دعمها ، ودعم ما يشابهها من مواقع ثقافية هامة ، ستظل مضيئة في ذاكرة الأجيال جيلا بعد جيل .

النادي السّوري بالخرطوم

٧

لم يستقبل مكانٌ ، العربَ المقيمين في الخرطوم ، وخاصة أبناء البعثات الدبلوماسية والجاليات العربية ، مثلما استقبلهم النادي السوري على مدى وسنوات عقود طويلة ، مع العلم أنهم كانوا دائما ، مرحباً بهم من قبل الأخوة السودانيين عموما ، في أي مكان ، وأي زمان . ولكن الزمن والتواصل يخلقان لدى الناس عادات تتراكم حتى تكون كأنها نوع من الواجبات اليومية .

هكذا كان الحال مع تردد العرب على النادي السوري ، الذي كان قريبا على الأرجح من سكن معظم الجاليات العربية التي فضلت العمارات والرياض والخرطوم ٢ ، بسبب قربها من أماكن أعمالهم ومدارس أبنائهم .

النادي السوري ، هكذا كنا نسميه وما زلنا، ولا اعرف أن كان يمتلك اسماً موسعا أكثر ، أو هو بصيغة أكثر رسمية ، أو ما إذا كانت فيه إضافات أخرى ، هو نادٍ سوداني فأعضاؤه السوريون في الأصل يحملون الجنسية السودانية الآن وهم مواطنون سودانيون ، وكنت حين يتحدث احدهم معي أتوقع أن تكون لهجته سورية ، فإذا هو يفاجئني بلهجة سودانية صميمة !.

كنا ـ خاصة في أيام الصيف ـ بمجرد أن تغيب شمس الخرطوم النَارية اللاهبة المترامية ، حتى تبدأ العربات الخاصة بالجالية العراقية والعربية ، من دبلوماسيين وغير دبلوماسيين ، بالتوافد تباعا ، جماعات ووحدانا ، رجالا ونساء وأطفالا ، على النادي الذي أصبح البديل الموضوعي للبيوت والشقق السكنية ،

والملاذ الحقيقي للعوائل ، خاصة أن فترات انقطاع الكهرباء كانت طويلة نسبيا في فترة النصف الأول من التسعينات من القرن الماضي .

كان النادي هو مكان الاستضافات الفردية والجماعية ، واستقبال الزوار وممارسة الرياضة والسباحة والبليـاردو ، وإقامة حفلات أعياد الميلاد ، واحتفالات الطلبة بالنجاح في امتحاناتهم وغير ذلك ، إضافة إلى المشاركة في المناسبات الاجتماعية والحفلات الفنية والموسيقية التي يقيمها النادي .

وإذا كان ثمة ضيوف عرب ، أو حتى أجانب ، من وفود رسمية أو شعبية مختلفة ، أو من التجار أو الطلاب أو غيرهم ، فلابد أن يكونوا حاضرين يوميا ، في النادي طيلة فترة بقائهم في العاصمة السودانية العريقة .

والنادي السوري ناد قديم وعريق ، ربما ترجع ارهاصات إنشائه مع قدوم أولى العائلات السورية إلى السودان ، حتى تطور وأخذ شكله النهائي الموجود عليه الآن .

لا اعرف بالضبط تاريخ ولادته الحقيقية ، ولكنني من خلال الأحاديث مع أفراد من الجالية السورية التي استوطنت منذ زمان بعيد ، وأصبحت بالطبع سودانية الجنسية واللهجة والتاريخ ، والحياة والذكريات والمحبة ، ومع الأخوة السودانيين فإنهم يرجعونه إلى تاريخ بعيد ، ويمكن لمؤرخي تلك الفترة أن يحددوا هذه التواريخ المهمة لمعالم الخرطوم وأم درمان وبحري .

والجالية السورية التي قدمت إلى السودان جاءت لأسباب عديدة ، أهمها على ما يبدو التخلص من القوانين التي كانت موجودة في بلاد الشام والعراق أيام العهد العثماني ، وخصوصا تجنيد أبناء هذه البلدان في الخدمة العسكرية ، وخوضهم حروب الإمبراطورية التي لا يعود منها احد . واذكر هنا أن العديد من أجدادي السالفين رحمهم الله ذهبوا إلى السَفَرْ برلك وماتوا هناك حيث لا احد علم عنهم

شيئا ، ومنهم والد جدتي لأمي مثلا ، وشقيق جدي لأبي .

كما يمكن أن يكون العديد من هذه العوائل السورية ، أو الأصح الشامية ، كانت قد جاءت للتجارة والعمل واستقرت بشكل دائم بعد أن وجدت الطمأنينة والترحيب والسلام .

ومعروف أن أهل الشام وصلوا ليس إلى السودان العربي المسلم الإفريقي القريب نسبيا ، ولكن إلى عموم إفريقيا ، والى الأمريكيتين وغيرهما ، وحققوا نجاحات في العمل وجمع الثروة والتقدم الاجتماعي والاقتصادي ، وحتى السياسي في بعض بلدان أمريكا الجنوبية .

ومن أطرف وأرق اللقاءات التي صادفتني في النادي السوري ، تعرفي على زوجين متقدمين في السن ، يعود أصلهما إلى مدينتي في العراق ، مدينة الموصل ، وقد تحدثت معهما مرات عديدة ، وحدثاني عن كثير من ذكرياتهما في مدينتهما الأولى ، وسألا عن العديد من الأسماء والمناطق والعائلات ، وقد فرحت بهما فرحا شديدا ، وبدأت أشعر كأنهما من أقربائي ، أما هما فغالبا ما كانت تختلط دموعهما بابتساماتهما .

كان النادي السوري مكانا اجتماعيا وثقافيا ورياضيا ، تعليمات الاشتراك فيه ليست صعبة ولكنها راقية ، وكان التعود عليه أمرا لا مفر منه ، حتى في زيارتي الأخيرة للخرطوم ، قضيت أمسية طويلة فيه مع احد أصدقاء الزمن الماضي من العراقيين المقيمين في السودان ، تذكرنا من أصدقائنا من رحل ومن بقي على قيد الحياة ، من هاجر إلى بلدان الله البعيدة ، ومن عاد إلى وطنه الجريح العراق ، من بقي على حاله ومن تغير .

بقينا ساهرين إلى ساعة متأخرة من الليل ، كما كنا نفعل سابقا .

عن معارض الكتاب في الخرطوم ٨

كنت حريصا أثناء إقامتي الميمونة في الخرطوم المحروسة ، أن أتابع حركة نشر الكتاب السوداني والعربي ، واقتنائه ، والتعرف على الأدباء والشعراء والكتاب، وأكثر من ذلك إيجاد الفرصة المواتية لطبع مجموعة شعرية أو أكثر في السودان ، كما فعلت في عمان وبيروت والقاهرة ودمشق ، وبغداد والموصل بالطبع .

أن ترك بصمة أدبية أو فنية في هذا البلد ، كان من أولوياتي ، وعلى هامش عملي مديرا للمركز الثقافي العراقي في العاصمة السودانية المثلثة ، إذ أن تلك الخطوة تزيد من معرفة الناس بك ، وتعطي تبريرا واضحا في قدرتك على قيادة مركز يعمل في إنتاج الثقافة والفنون والآداب .

وكانت أولى المعارض التي زرتها معارض الكتاب التي أقامتها دار الكتب في جامعة الخرطوم على ساحات ومواقع جامعية مختلفة ، وكانت تشارك فيها العديد من مكتبات الخرطوم ودور النشر فيها ، وكانت تحظى بجموع غفيرة من المرتادين والزائرين ، يصح أن نقول أن غالبيتهم كانت من الطلبة والأساتذة الجامعيين لوجودها ضمن مباني الجامعة نفسها ، والمنفتحة في الوقت نفسه على أطرافها انفتاحا سلسا طبيعيا . وزرت معارض أخرى في مكتبة البشير الريح ، وجامعة النيلين ، وقاعة الصداقة ، وغيرها ، وطبعا فيما بعد معرض الخرطوم الدولي للكتاب .

الآن وأنا أحاول أن أعطي فكرة عما تكون لدي من ملاحظات ، أشير عرضا إلى تجربة إقامة معرض للكتاب في شارع فيصل بالجيزة في القاهرة حاليا ، من قبل الهيئة العامة للكتاب في مصر ، حيث أقيم المعرض بديلا مؤقتا لمعرض الكتاب الدولي الذي لم يفتتح بسبب اندلاع الثورة المصرية في الخامس والعشرين من يناير، لاقت الفكرة قبولا من أطراف تهتم بالنشر فيما لاقت معارضة من أطراف أخرى بسبب إقامة المعرض في منطقة شعبية مزدحمة بسكان مختلفي الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ولكن النتيجة التي أحسست بها شخصيا ، وأحس بها العديد من المتابعين والكتاب ودور النشر وحتى بعض الفضائيات المصرية والعربية والدولية ، أن هذه التجربة كانت ناجحة جدا ومفاجئة أيضا ، إذ حقق المعرض مردودا ثقافيا واقتصاديا ملفتا للانتباه .

لذلك وأنا اذكر معارض الكتاب في الخرطوم ، أحس أن الواجب يقتضي إقامة معارض كبيرة في مدينة أم درمان وبالخرطوم بحري في ساحاتهما الداخلية الفسيحة ، بحيث يصلها مواطنون من المناطق البعيدة التي تبعد كثيرا عن منطقة أبنية المعرض الدولي ، القصد أن نذهب إلى الناس الذين لا يستطيعون أن يأتوا إلينا ، والذين يمكن أن يقتنوا كتبا وهم على مقربة من محلات سكنهم وبالنقود التي قد يدفعونها للمواصلات ، إضافة إلى قدرة الناس على حضور الفعاليات الثقافية والفنية المصاحبة للمعرض ، وإن إقامة مثل هذه المعارض لا تتعارض وإقامة المعرض الدولي المعتاد في كل عام ، بل ستكون المعارض الأخرى ظهيرا ثقافيا كبيرا له .

أن العاصمة السودانية المثلثة تستحق أن يكون لها ثلاثة معارض في الخرطوم ، وبحري ، وأمدرمان ، وليس صعبا أن تكرس وزارة الثقافة ، مجموعة من العاملين المختصين في هذا الشأن وهم كثر وذوي تجارب مهمة ، لتخطط

وتنفذ معرضا كل أربعة أشهر ، وبذلك يكون هناك مظهر خصوصي تتمتع به فعالية الكتاب في حركته الدائرية المستمرة ، وفق جداول زمنية محددة ، ولا بأس أن يكون هناك خصوصية في إقامة الفعاليات الفكرية الثقافية والفنية ، بحيث تكرس أو تكثف تلك التي تسلط الضوء على المنطقة أو المدينة ، وكتابها ، ومؤلفيها ، وفنانيها ، وفرقها الغنائية والموسيقية ومطربيها وأساتذتها وأدوارها الوطنية والاجتماعية ، ودور النشر والطباعة فيها ، وتاريخها وغير ذلك .

إن الكتاب السوداني والمؤلف السوداني يطاول في قامته أطول القامات الإبداعية في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وله من خصوصية الأرضية الإبداعية ما يحقق إدهاشا واضحا في جميع فنون الإنتاج الثقافي والفكري ، ولكن ما زال يحتاج إلى عملية ثورية لإيصال هذا النتاج إلى المتلقين في كل مكان داخليا وخارجيا .

المسرح السوداني

٩

خلال إقامتي المديدة في الخرطوم المحروسة ، كنت أحاول جاهدا أن اطلع على ما تقدمه الحياة الثقافية السودانية من إبداعات راقية في مختلف مناحي الثقافة والفنون والآداب ، والتعرف على تجارب المبدعين من الفنانين والكتاب والمثقفين .

وكنت وما زلت ، اعتبر مثل كثيرين غيري ، فن المسرح من أكثر الفنون الجميلة التي تستدعي جهدا خلاقا ، وعملا جماعيا منظما ، وميزانيات كبيرة نوعا ما ، إضافة إلى مشاركة أكثر من جهة فنية وإدارية ومالية في المساهمة في إنجاح العمل .

وإضافة إلى ولعي الشديد في حضور الأعمال المسرحية وخاصة في بغداد والموصل ودمشق وعمان والقاهرة ، وقراءتي لترجمات المسرح العالمي المصرية والكويتية خاصة ، فقد كان لي سابق تجربة في كتابة المسرحية ، والمسرحية الشعرية خاصة ، فقد كتبت مسرحية (دم فوق لامونيدا) التي قدمت في بغداد ، وتحكي قصة سقوط حكومة الوحدة الشعبية بقيادة سلفادور الينـدي في تشيلي ، ورحيل الشاعر الإنساني الكبير بابلو نيرودا عن هذه الحياة رحيلا ماساويا ، ثم كتبت مسرحية شعرية أخرى عن انتحار الشاعر اللبناني خليل حاوي في ظروف شديدة الماساوية أيضا أثناء الحرب اللبنانية .

أقول أن كل ذلك جعلني أقف دائما أمام الجهد المسرحي باحترام شديد ،

وتأمل دقيق ، فهو حقيقة جامع الفنون كلها .

وكنت في الخرطوم قد حضرت عروضا مسرحية عديدة على قاعة الصداقة، وقاعة المسرح الصيفي المكشوف في أم درمان ، وبعض قاعات أخرى في الجامعة وغيرها ، إضافة إلى عروض مسرحية مختلفة كانت تعرض على مسارح جماهيرية تعد إعدادا سريعا وبمساحات اصغر ، خاصة بمشاهد مسرحية قصيرة ، أو فقرات فنية أخرى .

وكلها كانت توضح بجلاء ، الإرث العميق ، والموهبة الأصيلة ، لتجربة الفنانين السودانيين في الإنتاج المسرحي من حيث النصوص المختارة عالميا أو عربيا أو محليا ، و قدرة المخرجين الرائعة و قدرات الممثلين وغيرها من متممات العمل المسرحي من موسيقى تصويرية وملابس وديكور الخ .

ولكن كان العمل المسرحي يبدو لي آنذاك جهدا متعثرا ، صعب التحقيق والانجاز المتعاقب المتواصل ، نتيجة أسباب مالية وإدارية ، وهذا ما كان يحبط من اندفاعه المسرحيين السودانيين ، وتواصلهم ، إضافة إلى ندرة القاعات المسرحية المعدة إعدادا فنيا لتستوعب المدخلات التقنية الجديدة في العمل المسرحي ، وقبل هذا وذاك ، الموقف الثقافي العام المساند للعمل الفني المسرحي ، الداعم له باعتباره إنتاجا غير ربحي في أفضل الأحوال .

ولعل هذا أيضا ما جعلني أحجم عن تقديم أي عمل مسرحي طيلة إدارتي للمركز الثقافي العراقي ، واستعضت عن ذلك بتقديم ندوات خاصة عن المسرح السوداني والعراقي والعربي .

ورغم ذلك كان المشهد المسرحي الجاد ، يعرف كيف يكشف عن نفسه وعن قدراته الخلاقة هنا وهناك ، متحديا ما كان يبدو وكأنه ركود مسرحي قاتم ، وإحباط شامل في صياغة متواليات مسرحية يتواصل معها الجمهور ، كما كنا نفعل

مع نتاج مسرحيات فرقة المسرح الفني الحديث في بغداد ، ومع مبدعيها من أمثال يوسف العاني وإبراهيم جلال وبدري حسون فريد وغيرهم .

في القاهرة حيث أقيم منذ ست سنوات ، حضرت عروضا مسرحية سودانية شبابية تنتمي إلى ما يعرف بالمسرح التجريبي ، وكان حضورها حيويا مقاربا لأفضل العروض القادمة من أوربا وأمريكا وغيرها من دول العالم ، ولاقت ردود أفعال ممتازة من قبل الجهور ومن قبل اللجان التحكيمية .

الآن لابد من نظرة جديدة للمسرح السوداني ، ترجع أمجاده الماضية ، التي تألقت كما عرفت في الستينات والسبعينات ، ولابد أن يساهم المجتمع كله في دفع عجلة المسرح إلى أمام ، بالإضافة إلى الدعم المدروس من قبل وزارة الثقافة ، وان تعمل الجامعات على الاهتمام به كدرس أصيل من دروس الفن والحياة .

وأخيرا فكما أن المسرح وسيلة تثقيفية راقية ، فهو أيضا وسيلة ترفيه ومتعة راقية إذا عرفنا كيف نتعامل معه ومع الجمهور .

لا هلالابي ولا مريخابي ... موردابي ١٠

والناس في السودان عامة ، وفي الخرطوم خاصة ، على الأغلب واحد من اثنين ، أما هلالابي ، أو مريخابي ، والنسبة هنا بالباء ، أي هلالي ومريخي ، وحين سألت مرة ، أستاذنا الراحل الكبير الدكتور عون الشريف قاسم ، عن النسبة بالباء، قال أنها لغة من لغات أهل اليمن .

أما أنا فكنت حين اسأل عن مذهبي في محبة كرة القدم السودانية ، فكنت أقول : أنا موردابي .

وأنا في الواقع لا افرق بين هذه الفرق فكلها عزيزة لدي ، وطالما ضحك مني الأخوة السودانيون على هذه الإجابة ، وكانوا لايأخذونها على محمل الجد ، أما أنا فكنت ابرر لهم الأمر على النحو التالي ، إذا قلت هلالابي يزعل المريخابيون، وإذا قلت مريخابي يزعل الهلالابيون ، وأنا لا أطيق زعل تلك الجموع الغفيرة من الجانبين ، أما إذا قلت موردابي ، فلا يزعل احد إذ أحاول أن أكون على الحياد ، ولكن كأن أحدا لا يصدق ما اقول ، من كلا المذهبين ، أما الموردابيون فكانوا يقولون لي : كتر خيرك ، وهم كذلك لا يصدقون .

وهكذا كان الأمر ، ومرة جاء المنتخب العراقي إلى الخرطوم ، ليلعب مع نادي الهلال مباراة ودية ، وحين لعبنا على استاده العامر، دعونا الله أن يكون التعادل هو النتيجة ، وقبل المباراة وفي أمسية عشاء قال سفيرنا المرحوم عبد الصمد علي ، لمدرب المنتخب العراقي وللاعبين العراقيين ، ضاحكا : عَمِّي ما

نريد غير التعادل ، الشعب السوداني يحبنا ، وما نريد نخسر هذا الحب بسبب كرة القدم .

ولكن الفريق العراقي ربح المباراة ، ولا اذكر النتيجة بدقة ، وحين انتهت المباراة ، هب المشجعون السودانيون يهنئون فريقنا ، ويهنئون أعضاء الجالية العراقية في الخرطوم ، ويقولون أن المنتخب العراقي لعب بشكل جيد ويستحق الفوز ، صحيح لعب الفريقان مباراة جيدة ، وقدما عرضا كرويا بمستوى المحبة القائمة بين الشعبين ، ولكن على ما بدا ، فان حب العراق والعراقيين ، غلب حب كرة القدم عند أخوتنا السودانيين .

مع سودانير.. ذهابًا وإيابًا

١١

أثارت الأيام الثقافية والفنية والأدبية والصحفية ، التي نجحت نجاحا باهرا ملفتا للنظر ورعتها شركة الخطوط الجوية السودانية في القاهرة والإسكندرية بمصر العربية مؤخرا ، العديد من الذكريات والمواقف والمشاعر في نفسي ، والتي تراكمت طيلة خمس سنوات ، عملت فيها مستشارا صحفيا ومديرا للمركز الثقافي العراقي في الخرطوم .

كانت طائرة الخطوط الجوية السودانية هي راحلتي الأمينة ، ومركبي الأثير وسفينتي المحلقة في الأجواء منذ عام ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٧ ، في سفرات عديدة إلى الخرطوم وما بعدها أيضا حتى الآن .

وكنت قد قطعت تذكرتي للسفر من منطقة العبدلي في عمان عاصمة الأردن إلى العاصمة المثلثة في أول رحلة لي إلى السودان .

وتكررت سفراتي على متنها في كل الإجازات السنوية التي قضيتها في العراق .

وكان اغلب العراقيين من المقيمين والزوار يطيرون على سودانير ذهابا وإيابا ، وكانت تعاملنا بطريقة متميزة من كل النواحي وما تزال على نفس النهج والطريقة على ما اعتقد .

ولقد سعدت سعادة بالغة ، واطمأن قلبي بما ادخله دعاء السفر الذي سمعته ممنهجا أول مرة في الطائرة السودانية ، ذلك الدعاء الذي يشحن النفس بطاقات إيمانية غزيرة وعميقة .

وكنا، اقصد العراقيين المقيمين في السودان ، غالبا ما نذهب أسبوعيا لاستقبال الطائرة السودانية القادمة من عمان خاصة ، إذ لم يكن هناك خط من الخرطوم إلى بغداد مباشرة ، ونأمل أن يفتتح قريبا أو في المستقبل ، إما لاستقبال وفد رسمي أو شعبي ، أو للترحيب بوفد سوداني قادم من العراق ، وخاصة وفود وزارة الثقافة والإعلام ومهرجاناتها العديدة التي كان يشارك فيها الكثير من المبدعين السودانيين . أو لاستقبال أقارب أو أصدقاء أو معارف أو لتسلم شحنة أو بريد .

وفي الوقت ذاته نكون في المطار لتوديع من كان قد جاءنا بعد انتهاء زيارته إلى الخرطوم . وهكذا ندور ما بين صالة التوديع وصالة الاستقبال ، وأحيانا كان المغادرون والقادمون يلتقون في صالة الشرف أو الدرجة الخاصة ، فنستقبل ونودع في الليلة ذاتها ، وفي الصالة ذاتها ، في تجمع عراقي سوداني أشبه ما يكون باحتفال جميل .

من المآثر السودانية العظيمة التي اذكرها ، ويذكرها كل العراقيين بالشكر والامتنان والعرفان ، لسودانير وللكابتن شيخ الدين رئيس مجلس إدارتها في ذلك الوقت ، وللعاملين فيها جميعهم ، أن طائرة الخطوط الجوية السودانية كانت أول طائرة غير عراقية تخرق الحصار الاقتصادي الجائر على العراق ، والذي استمر سنين طويلة تقارب السنوات العشر ، فقد حملت طائرة سودانير الغراء أول شحنة من اللحوم السودانية المذبوحة إلى بغداد ، متكلة على الله وتوفيقه ، ووصلت بسلام وعادت بسلام ، رغم كل الصعوبات والمعرقلات التي كانت موجودة آنذاك من جهات عديدة ، واستمرت بعد ذلك وقتا طويلا ، تنقل البضائع السودانية في رحلات مكوكية دائبة .

ولا أنسى مشاركة الخطوط الجوية السودانية ممثلة برئيس مجلس إدارتها

حين ذاك الكابتن شيخ الـدين في حفـل افتتـاح المركـز الثقـافي العراقـي في شـارع الزعيم الأزهري في الخرطوم بحـري ، بحضـور رئيسـي المجلسـين الـوطنيين في السودان والعراق ، ومن ثم مساندة سودانير لنا في العديد من النشاطات وخاصة ما يتعلق بنقل مطبوعات وكتب أو لوحات فنية وتشكيلية أو نقل وفود ثقافية وفنية .

نأمل لسودانير التقدم والخير لها بكادرها ومنتسبيها فهي ليست فقط مرتبطة بذاكرة المواطن السوداني إنما بذاكرة المواطن العربي أيضا .

الفضائيات السودانية ١٢

لم يعد الإعلام اليوم حكرا على دولة أو مؤسسة أو فرد ، خاصة بعد انطلاق الموجة الجديدة من التقنيات الحديثة جدا في مجل الاتصالات .

وقد عالجت هذه المبتكرات التقنية الحديثة ، التخلف الذي كانت تعاني منه البلدان النامية ، وجاءت لتحل معضلات لم يكن سهلا حلها في السابق ، إلا بجهود ضخمة وأموال كثيرة جدا ، خاصة في البلدان الواسعة المترامية الأطراف مثل السودان .

لقد حقق الانتشار الإعلامي الفضائي لكافة الدول شيئا من العدالة والمساواة بين الشعوب لإيصال صوتها إلى الآخر ، والى جماهيرها في الوقت ذاته ، في حين كان التدفق الإعلامي والثقافي يأتي من طرف واحد .

أما والأمر أصبح في أيدي إعلاميي هذه الدول والحكومات والشعوب ، فلا مناص إذن من أن يكون الحرص كبيرا على الاستفادة من هذه الوسائل استفادة حقيقية ، وخاصة القنوات التلفزيونية الفضائية التي تصل إلى كل مكان في العالم الوسيع ، وهي فرصة هائلة لكي تعوض عن ما فاتنا من قبل في إيصال ثقافاتنا وفنوننا وحضاراتنا ، وكل ما من شانه أن يرفع سمعة شعوبنا ، وان يبرز أسماء مبدعينا ونتاجاتهم ، وان يكون مستوى تقديم المادة الإعلامية على أفضل ما يكون من المعاصرة والتنوع والجذب .

والسودان الكبير في حضارته وارثه وموارده ومبدعيه ، يستطيع أن يكشف

تلك الجوانب الثقافية الإبداعية ، وان يقدم من البرامج المتخصصة في كل مجال من المجالات ، ما يدهش به مشاهدي العالم ومتابعيه ، وان يبتكر خصوصيات تنطلق من خصوصياته ذاتها في الموسيقى والمسرح والفنون التشكيلية والآداب والرقص الشعبي وغير ذلك .

القنوات الفضائيات السودانية الموجودة حاليا تقدم جهدها مشكورة حاليا ، ولكننا نطمح إلى مزيد من البرامج الموجهة إلى الآخر ، الذي لا يعرف الكثير عنا ، أو انه يعرف ولكنه لسوء طويته ونواياه يحاول التعتيم على حضاراتنا وواقعنا وإنساننا وبلدنا . وهذه فرصتنا لان نثبت أننا على اكبر قدر من المسؤولية التاريخية الملقاة على عواتقنا ، خدمة لأبناء وطننا وامتنا والإنسان في كل مكان .

١٣ رمضان في السودان

كان أول يوم نزلت فيه العاصمة الخرطوم المحروسة ، هو احد أيام شهر رمضان المبارك ، وحين حطت الطائرة السودانية على ارض المطار ، كان الوقت بعد العصر بقليل ، وكان الجو حارا ، ولم يبق على موعد الإفطار إلا سويعات قليلة، من المطار مباشرة بمعية السفير العراقي الراحل عبد الصمد حميد علي رحمه الله الذي كان مصادفة في المطار ، ذهبنا إلى دار احد الزملاء العراقيين ممن يعملون في المنظمة العربية للزراعة حيث كان قد دعا إلى حفل إفطار، وكان هناك جمع من الأخوة السودانيين أيضا .

هكذا بارك الله سبحانه وتعالى في وجودي بالسودان ، منذ أول يوم وصلت فيه ، وتوالت بركاته طيلة إقامتي هناك ، لا بل حتى ما بعد مغادرتي السودان ، وحتى الآن .

كان رمضان في السودان شهرا للعبادة صافيا ، يحتفي به السودانيون احتفاء أصيلا ، ويستمسكون خلاله بالعادات العربية والإسلامية الإنسانية الحقيقية ، تحس أنهم متجردون من الأثرة والأنانية ، مقبلون على الكرم والمساعدة والمشاركة والمحبة والطيبة ، سواء ما ظهر منها وما بطن ، وكانت مشاهد الإفطار الجماعية مختلفة من مكان إلى آخر ، ولكنها جميعا كانت تتسم بالحركة والمحبة ، والتآلف ، وخاصة تلك التي تراها على أرصفة الشوارع وبين الحواري والأزقة وأمام عدد من البيوت .

من عادات السودان الإيمانية والصحية في الوقت ذاته ، والتي تعلمناها نحن العراقيين ، وما زال عدد منا يطبقها ، انه كانت هناك وجبة إفطار خفيفة تعقب صلاة المغرب ، تقدم فيها الأطعمة الخفيفة والعصائر والتمور والخضروات ، وبعدها بفترة قد تقرب من ساعتين ، تأتي وجبة العشاء الرئيسية ، وكنا في السفارة العراقية إذ ذاك ، حين يأتينا ضيوف من العراق ، توجه إليهم دعوات إفطار رسمية وغير رسمية ، ودعوات عشاء في المساء ذاته ، وكنا نشرح الأمر دائما على النحو الذي سبق .

ربما شهدنا أكثر مساجد وجوامع وخلاوي الخرطوم وأم درمان وبحري خلال الشهر الفضيل ، وكنا نادرا ما نفطر في منازلنا حيث التجمع الرمضاني في السودان رابط جميل يعمل الناس على إدامته باستمرار خلال هذه الأيام المباركة الجميلة ، ناهيك عن أن السوداني أصلا معروف عنه إحساسه الكبير بالمناسبات الاجتماعية المختلفة ، ويأتي هذا الشهر المبارك ليزيد حجم هذا الإحساس ، ولكي يضفي عليه بردة إيمانية دينية عالية .

ولكي لا يكون رمضان مناسبة أحادية تتعلق بالصيام وما يتعلق به من أعداد النفس للتقوى والصلاح وقراءة القرآن الكريم ، وما يتعلق من أعداد العوائل السودانية بموائد الإفطار من المأكولات والمشروبات الوطنية ، فان رمضان في السودان يحفل بالمناسبات الثقافية والفنية والفكرية ، وخاصة ليالي الإنشاد الديني، وإقامة المحاضرات والأمسيات الدينية والأدبية والفكرية والموسيقية المختلفة ، والمعارض الفنية ، إضافة إلى الأمسيات الرائعة التي تقيمها الطرق الصوفية العديدة ، واذكر أننا ذهبنا إلى العديد من هذه الأمسيات وشاركنا فيها مشاركة فعالة ، وكان بيننا في إحداها المقرئ العراقي المعروف الشيخ علاء الدين القيسي ، ومعه عدد من الشيوخ والمتصوفة العراقيين الذين يزورون الخرطوم

والذين يتواصلون مع إخوانهم في السودان ، واذكر أن جامعة القرآن الكريم المطلة على النيل الكبير ، استضافت احد المفكرين الإسلاميين العراقيين الكبار الشاعر الدكتور عماد الدين خليل ، وهو بالمناسبة صديق قديم ومن مدينتي الموصل وكنا فترة نعمل في مكان واحد بوزارة الثقافة والإعلام ، حيث أقام عدة أمسيات شعرية ، وألقى محاضرات أدبية ودينية في عدد من مرافق الجامعة ومنتدياتها ، وإمام طلبتها وبحضور عميدها الدكتور احمد علي الإمام حفظه الله .

هذا إضافة إلى ما كانت تقوم به منظمة الصداقة الشعبية العالمية ، بوجود قياداتها حينذاك وفي مقدمتهم الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل ، والمرحوم خوجلي صالحين وغيرهم من الأساتذة الكبار ، من تخصيص ليال بعينها لكل جالية من الجاليات العربية والإسلامية حيث تقدم صورة شاملة وعملية عن شهر رمضان المبارك في بلدانها وأقطارها .

السيرة الذاتية والإبداعية

أمجد محمد سعيد

- أمجد محمد سعيد ذنون محمد العبيدي.

- اسم الشهرة: امجد محمد سعيد .

- مواليد مدينة الموصل / العراق / ١٩٤٧ .

- بكالوريوس آداب / جامعة بغداد / كلية التربية / قسم اللغة العربية ١٩٦٩-١٩٧٠ .

- دبلوم عالي / معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة/ قسم تحقيق التراث ٢٠٠٨.

- ماجستير / معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة / قسم تحقيق التراث بدرجة امتياز ٢٠١٠.

- عضو اتحاد الأدباء والكتاب العرب .

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في القطر العراقي – عضو المجلس المركزي للاتحاد ٢٠٠٠ .

- عضو اتليه القاهرة / مصر .

- عضو اتحاد الكتاب العرب / دمشق .

- عضو اتحاد كتاب مصر .

- عمل في المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية العراقية .

- عمل في الصحافة العراقية في الصحف والمجلات .

- مدير تحرير مجلة الأديب المعاصر الصادرة عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ٢٠٠٠-٢٠٠٣ .

عمل في السلك الدبلوماسي العراقي :

- ملحقاً في السفارة العراقية في عمان / الأردن / ١٩٧٧ – ١٩٨١ .

- مديراً للمركز الثقافي العراقي في القاهرة / مصر / ١٩٨٨ – ١٩٩٠ .

- مستشاراً صحفياً ومديراً للمركز الثقافي العراقي في الخرطوم / السودان / ١٩٩٢-١٩٩٦ .

- نشر أعماله الأدبية والشعرية والصحفية في الصحف والمجلات العراقية والعربية ، وترجمت بعض قصائده إلى عدد من اللغات الأجنبية . وكتبت عن شعره العشرات من الدراسات والمقالات .

- شارك في مؤتمرات وندوات أدبية وإعلامية كثيرة داخل وخارج العراق .

- حاصل على الجائزة الأولى لوزارة الثقافة والأعلام العراقية في مسابقة الفاو الأدبية الكبرى في الملحمة الشعرية ـ عن كتاب (رقيم الفاو) ١٩٨٩ ـ ١٩٧٠ .

- حاصل على شارة محافظة نينوى للأدب .

- حاصل على شارة جامعة الموصل للإنجازات الأدبية والإعلامية .

صدر للشاعر

١ .نافذة للبرق ، شعر ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، .١٩٧٦

٢ .أرافق زهرة الأعماق ، شعر ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ،١٩٧٩..

٣.البلاد الأولى ، شعر، وزارة الثقافة والإعلام ،بغداد ، ١٩٨٣ .

٤ .الحصن الشرقي ،شعر ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ،١٩٨٧ .

٥ .جوار السور فوق العشب ،شعر ،وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٨..

٦ .مسرحيتان شعريتان ، جامعة الموصل ، الموصل ،١٩٨٨ .

٧.قصائد حب ،شعر ، بيت الموصل للنشر والتوزيع ،الموصل ،١٩٨٨..

٨. رقيم الفاو ،ملحمة شعرية ، وزارة الثقافة والإعلام ،بغداد ، ١٩٨٩ ،الملحمة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى لمسابقة الفاو الثقافية الكبرى لوزارة الثقافة والإعلام .

٩. صورة العربي في الإعلام الغربي، دراسة ،الموسوعة الصغيرة ،وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٩ .

١٠. ما بين المرمر والدمع .شعر :

الطبعة الأولى ، دار الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم ،١٩٩٥.

الطبعة الثانية ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ .

١١ . أربعون نهارا ، شعر :

الطبعة الأولى ، دار جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، ١٩٩٣ .

الطبعة الثانية ، دار أزمنة ، عمان ، ١٩٦٦ .

١٢ . سورة النيل ، شعر اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،.١٩٩٩

١٣ . قمر من الحناء ، شعر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،٢٠٠٠..

١٤ . فضاءات وأمكنة، شعر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ٢٠٠١ .

يضم المجموعات : أربعون نهارا، سورة النيل ، ما بين المرمر والدمع .

١٥ . محمد (ص) قمر الأناشيد ، شعر:

الطبعة الأولى،دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٢ .

الطبعة الثانية ، مدبولي ، القاهرة ، .٢٠٠٧

١٦ . أوراق عمان ، نصوص ، أمانة عمان الكبرى ، عمان ، ٢٠٠٢ .

١٧ . مرايا العزلة ، شعر، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، .٢٠٠٣

١٨ . نشيد الأزمنة ، شعر ، نفرو للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .

١٨ .قهوة ادونيس ، قصيدة طويلة ، قراءة للنقد والترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٧..

١٩ . عزف سوداني بأوتار عراقية ، قصيدة ملحمية ، الدار للطباعة والنشر ، القاهرة ، .٢٠٠٧

٢٠ . الوردة لمرسية وللأندلس الريح ، قصائد ونصوص ، كتاب اليوم ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .

٢١ . عين الشمس ، شعر ، دار الحضارة ، القاهرة ، .٢٠١٠

٢٢ . الوصول إلى زهرة الماء ، مختارات شعرية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٠.



الفهرس